

بقلم : ادمون صبري

قصة طويلة

أدمون صبري

الخالة عطية

مأســـاة أسرة محرومة من أنجاب الأطفـــال



طبع شركة التجارة والطباعة (ذ. م. م.)
الصالحية ـ بغـداد
١٩٥٨

متعهـــد التوزيع

داخل العراق وخارجـه

توفيق محمود حلمى

صاحب مكتبة الأمل

تلفون **٦٤٨٠**

الخالة عطية

قبل أربعة أعوام تزوجت عطية • كانت آنذاك فتاة فى الثامنة عشر ريانة مليئة تنضح بالحيوية شأنها شأن القرويات فى الشمال • هواء عليل وهموم صغيرة وفضاء شاسع •

كانت تحيا فى كنف عمها بعد ان فقدت والديها فى سن مبكرة وكان هذا العم يعمل فى أرض المالكين ، أجيرا صغير الشأن طفيف الكسب • يسوق الثور ويبذر الحب ويحرس ويشذب ويحصد ويحمل الغلال الى السوق ويتحدث عن البصل والشعير وعن الشمس والمطر وعن الصيف والشتاء كما يتحدث عنها رجل خرافى ساذج ولدقبل مائتى عام •

كانت عطية تنهض بأعمال المنزل الريفى • فهى ترعى شؤون الدجاج وتضع العلف للبقرة وتملأ المصباح بالزيت كل مساء وتقود الحمار فى الفجر الى الساقية لجلب الماء • وهذه المهمة الاخيرة ذات متعة للفتيات والزوجات ، يذهبن بدوابهن المحملة بالجرار الفارغة قاطعات طريقا ترابيا ضيقا يغدو مطينا لزجا أيام الشتاء واذ ما يبلغن الساقية ينهمكن فى تفصيل أخبار القرية وما جد فيها من ولادات ووفيات وخطوبات وزيجات واسفار وعودات وسرعان ما يذعنها فى منازلهن •

كان عمها قد تزوج ولذا لم تخلو حياة عطية من المناكدات مع زوجة العم ، وغالبا ما تنشأ بسبب اصرار هذه الزوجة على نشر سلطانها فى ارجاء البيت ، وهو اصرار طبيعى ومتوقع لا تتوانى عن اظهاره زوجة الرجل الذى يسوس شؤون البيت ويتحكم فى مقدراته •

واذا استثنينا حادثين بارزين فى حياة عطية لما تبقى بين أيدينا غير أيام رتيبة تكر فى بطء لا حلاوة فيها ولا لون • والحادث الاول هو

زواج اختها الكبرى صفية والحادث الثانى هو غرامها بالموظف الصحى أو غرام الموظف بها وان كنا مضطرين الى تسمية تلك العلاقة الصبيانية التى يعوزها التعقل والحكمة غراما •

كان ذاك شاباً أشقر فى عداد موظفى الدولة ، يعمل موظفا صحيا فى القرية • كان حديث عهد بالوظيفة ، صغيرا جميلا ناعم البشرة أزرق العينين خفيف الروح مفتونا بمنصبه المرموق • يعاين المرضى ويصرف لهم الدواء ويحبر اسماءهم فى السجل ويبعث بتقاريره الشهرية الى مركز اللواء ولا يحجم عن التغزل بهذه وبتلك باسلوب مازح ظريف لا يوقع الاستياء فى نفس احد •

يقع المستوصف فى مدخل القرية عند النقطة التى يقوم عندها المقهى المتهافت المسقف بجذوع الاسفندان الخربة وقد غدا أشبه بمحطة للسيارات التى تنطلق الى المدينة او تعود منها • كان على عطية أن تجتاز بالمستوصف كلما خرجت تستقي الماء أو تقصد التريض على الهضبة المعشوشبة فى أدنى القرية ويبدو ان الموظف الصحي الذى لا تعوزه حاسة الاهتداء الى مواطن الجمال قد لمح فتاة مليحة تروح وتغدو أمام باب مستوصفه فابتسم لها كمن يقول - لقد عثرت عليك - • وذات صباح وفى وقت مبكر لقيها تركب دابتها الى الساقية فاستوقفها لحظة محييا ثم شرع يخطو الى جانبها فى شيء من الجرأة وكأنه قريب من أقربائها • وفى المساء تقولت القرية من أدناها الى أقصاها بغرام الموظف الصحي بعطية وتكرر اللقاء كثيراً فى مثل تلك الساعة وفى أماسي الصيف الخانقة حيث يسعى الناس الى مزارع البطاطا المحيطة بالقرية • كانا يتبسمان أكثر مما يتكلمان وحتى كلامهما كان حاداً يحمل معنى التحدي المصطنع ، وحسب الجميع أن خطوبة عطية لحبيبها الموظف المرموق وشيكة الوقوع

وهى خطوبة موفقة ما كان يرفضها أحد من الآباء • وثملت عطية بحلم عريض ، حلم الزواج بموظف مهندم جميل يشغل منصبا لا يقل كثيراً عن منصب الطبيب ، ان زواجاً من هذا الضرب ينقل الزوجة من قروية معصوبة الرأس مسربلة بالخرق الحمر والخضر عاطلة الوجه من ايما زينة ، الى بنت مدينة ترفل بالفساتين الزاهية وتضع أقراط الذهب وتخدمها الخادمات ، غير أن خلافاً وقع بينه وبين عمها فتعثرت الخطوبة وكبت فى مكانها بنقل الموظف الصحى من القرية بغتة وحل محله موظف صحى آخر • رجل هرم متزوج قليل الغناء فاسدل الستار عن موضوع الخطبة وصحت عطية من حلمها البهيج قانطة آسفة مخلفة فى البيت ترعى شؤون الدجاج وتضع العلف للبقرة وتستقي الماء فى الفجر •

ذات يوم بعثت لها أختها رسالة غامضة زاعمة ان مرضاً ما قد ألم بها ، فأخذ عطية القلق والاضطراب ، فرجت عمها أن يأذن لها بالسفر الى اختها ، فركبت عطية السيارة من قريتها الى المحطة برفقة أناس اصدقاء تبرعوا باصطحابها دفعاً للمخاطر ، فقطع بها القطار رحلة طويلة استغرقت الليل كله وهى فى عجلة من أمرها • فلقيت أختها ، آخر الامر تتمتع بأحسن صحة وقد انجبت ولدين اثنين •

كانت صفية تكبرها بسبعة أعوام قد تزوجت برجل غريب كان يقوم بسفرة الى قريتها لابتياع بعض المحاصيل من المزارعين ، فوقعت عليها عيناه فى الطريق فعلق بها قلبه وسرعان ما خطبها من عمها فأجيب الى خطبته وتزوجها • كانت عطية آنذاك ضئيلة الجسم حيية ، تذكر ان أختها الكبيرة ظهرت للمحتفلين بفستان طويل فضي اللون ذى أشرطة مزركشة ، قد طرحت على منكبيها شال مخرم من الدنتلا ناصع البياض وتوجت رأسها الأثيث الشعر

باكليل من الورد الاصطناعى وتحلت بالذهب الثقيل الخالص السيء الصياغة فى معصميها وأذنيها وعنقهــا • لقــد بدت تلك الليلة جميلة ورزينة حقا فانطلقت التهاليل وعم الفرح وثمل القوم بخمرة العنب ثلاثة أيام كاملة وها ان ثلاث سنوات قد مضت على زواج اختها حين وردت لها تلك الرسالة الغامضة •

قالت اختها حال ان فرغت من عناقها الاستقبالى ـ انا لست فى الواقع مريضة ولا أشكو ايما علة وانما اردت مفاجاتك ـ وقدمتها الى أخ زوجها الذى يكبره بعشرة أعوام • واستطردت بذات الابتســامة المذنبة وقد لاح المكر جليا فى ســيماها المتــورد – انظرى ها هى ذى المفاجأة أى رجل اخترت لك ! قويا جميلا بارعا فى الميكانيك يكسب أربعين دينارا فى الشهر •

واجفلت عطية لمرأى رجل ضخم كث الشاربين مفتول العضلات قاسى العينين تطفح الفظاظة من قسماته • تقدم اليها بجسمه الكبير مادا ذراعيه نحوها وكأنه قد امتلكها منذ اللحظة • تأملت فيه عطية انه يكبرها بعشرين عاما ويزن ضعف وزنها •

وبعد اسبوع واحد زفت عطية الى أخ زوج اختها • كانت تشعر وكأنها مقادة الى مصير محتوم لا تملك له دفعاً ولا رداً ، قد خرس لسانها فى غمرة الفســاتين الملونة والاشــرطة الحريرية وضروب العطور والادهان ، كل ذلك جعلها تحيا فى عالم من الافتتان الصاخب المحموم، فقد اجتازت عشرات المرات بشارع المستنصر وتفحصت عن كثب بذخ الموسرين وأرباح الصاغة وبدع الصناعة والتجميل التى تخلب لب النســاء •

فى المساء ألبسوها فستان العرس ونثروا على رأســـها الحلوى وأجلسوها فى الصدارة ، فغص المكان بالمحتفلين ومدت موائد الطعام

والشراب وشرع القوم يحتسون الخمر فى غير قصد راقصين ضاجين مثرثرين •

كان عرس عطية أفخم من عرس أختها واحفل بالطعام والشراب وضروب اللهو ، ففى أعراس القرية تستدعى جوقة هزيلة تضرب على طبل ضخم هادر وتنفخ فى مزمار قصبي حاد الصوت ذى اسطوانتين • تجول هذه الجوقة فى أرجاء القرية وتستقر فى بيت العريس ناشرة فى جنباته النشوة والمسرة فتتارجح الاجساد وينفتل الراقصون وتصفق الايدى ، ولم يسمح للعروس أن تتحرر من تقاليد القرية فهى تضع فى أذنيها أقراطاً مقوسة اشبه بالمروحة تعوزها الصنعة وتطوق عنقها بقلادة ضخمة من صفائح ذهبية خالصة ، وان تبخترت العروس وزهت فانما تتبختر وتزهو بفستان القرية ومنديله وقبائه ونعليه الواطئين غير مصطنعة أى قدر من المساحيق ولا ملتمسة أى ضرب من الترجيل لشعرها ، انما ترده الى وراء فى خصلتين ثقيلتين ملمعتين بالدهان مشبوك فى بعض أطرافه بدبابيس مثبتة •

أما فى عرس عطية فقد عزف العازفون على الكمان والعود والطبلة وضجت الحناجر مرددة شتى الالحان وانفتل بعض المخمورين الشفافى الامزجة يرقصون فى وسط الحفل ويتشابكون ويترنحون ويختلسون القبل بينما جلست العروس فى مكان مهيب قد سوى شعرها بيد خبيرة ، مضمخ بالفازلين الى حد الوميض ، مجعد حلقات حلقات ، وزجج حاجباها واصطبغت شفتاها بلون ياقوتى بديع • رفلت مزهوة بأردية بيضاء ، مغلفة راحتيها بزوج من القفافيز يصلان حتى معصميها ويعلو رأسها تاج هلالى مورد بأزهار صناعية ، لم يكن على جسدها غير البياض الثلجى من حذائيها الى قمة رأسها •

الى جانبها تماماً جلس زوجها الضخم المتململ الزافر انفاساً متضايقة ، يرنو الى المحتفلين بسيماء تتضارب عليها شتى التعابير • لم تكن عليه أى من أمارات الوجاهة ، فهو ببدلته السوداء الغامقة اللامعة فى بعض أطرافها وربطته المزحزحة قليلا عن وسط الياقة وضخامة حذائيه والنظرة المتسائلة والبلهاء أحياناً التى يرمق بها الناس ليشبه بذلك جميعا طاهيا من الطهاة يخشى أن يفوته طلب من طلبات الزبائن فيؤدى الامر الى فصله • وفى الساعات الست أو السبع التى استغرقتها الحفلة حدج زوجته عدة مرات مبتسماً وكأنما يقول ـ لا تكترثى فأنا الى جانبك ـ وسألها ذات مرة ـ ألا تجدين ان كل هذا عبث واننا فى حاجة الى الراحة ـ فتأوهت عطية ـ أنا أيضاً تعبة ولكن لا تتعجل حتى العربدات تنتهى •

ولما سألها عن أعراس القرية ابتسمت عطية ابتسامة حذرة وأجابت ـ هناك الامور مختصرة والقوم أكثر أخذا بأسباب الرزانة والتعقل •

وبعد أيام انتقلت الاسرة الجديدة الى غرفة واحدة فى بيت كبير واسع يقع فى مدخل زقاق ضيق معتم يذكر المستطرق فى جنباته ببغداد العثمانية بفوانيسها الشاحبة وحميرها المطهمة المحناة • لا يتجاوز عرض هذا الزقاق فى أرحب مواضعه عن ثلاثة أمتار ، تنهض على جانبه جدران أجرية مرتفعة كثيراً تتعانق سطوحها من الاعالى فتصد الشمس فى رابعة النهار فلا ينفذ من شعاعها غير لطخات باهتة مرتعشة من النور سرعان ما تمسحها الظلال وتمحوها محوا فيستحيل الزقاق معظم ساعات النهار معتما عتمة سردابية باعثة على الضجر والكآبة ، تقع غرفة الزوجين فى الطابق الثانى ، يصلا اليها بسلم متين من السمنت ذى درجات عريضة ضحلة • وهى غرفة متوسطة الحجم

نافذ جزء من أرضها عن الجدار الخارجى بواسطة امتداد الحديد الذى يشد آجرات السقف • تطل على الزقاق بنافذتين تقع الصغيرة فى زاوية الامتداد حيث يستطيع الجالس اليها استطلاع المارة عندما يضعون أولى خطواتهم فى المنعطف ، وتقع الكبيرة فى الجدار الخارجى تصدمها على نحو مباشر نافذة البيت المقابل فلا يتيسر منها الرؤية لايما شىء • يتدلى من هاتين النافذتين ستارتان من الچيت المطبوع بأوراق شجر الموز العريضة ، وقلما ترفع عطية ستارة النافذة الكبيرة وان فعلت ذلك فلمجرد نفض الغبار ومسح الزجاج ، أما الستارة الصغيرة فتزيحها عطية فى غالب الاحيان للمعاينة والتفرج على جمهرة الصبيان اللاعبين ضروب الالعاب تحت نافذتها • فهم فى كر وفر وشتم وضرب وتحد ومزاح •

فى الغرفة أربع قطع من الاثاث • ثمة القنفة وهى كبيرة مصنوعة من خشب الجام مطلية بدهان أبيض عليها مفرش قليل الحشو مغطى بشرشف من الكتان تبني اللون مطرزة حوافيه بخيوط بنفسجية عميقة وباهتة يتدلى حتى تمس اطرافه الارض • هذه القنفة هى مكان الزائرين .وصالون العائلة وأرجوحة النزهة • أمامها ينهض السرير وهو من الحديد مرتفع بعض الارتفاع ، تستخدم عطية الفراغ الذى تحته فى حفظ السلال المليئة بنفايات الملابس والخرق ولوازم البيت المستهلكة والزائدة ، ويتصل بالسرير الصوان وهو المع قطعة فى أثاث الزوجين مصنوع من خشب الجوز الاحمر مزيناً بقبضتين نحاسيتين مطعمتين بالصدف الازرق • تتدلى فساتين عطية مع بذلة سليم النظيفة فى النصف الايمن من الصوان بينا جعل الثانى على شكل رفوف متوازية لحفظ الملابس وعلب الزينة والدهانات الملمعة للشعر والاشياء الاخرى الثمينة المعرضة للكسر والضياع ، ويقابل الصوان من الجانب الآخر

خزانة مشبكة من التيل الناعم تضع فيها عطية صحونها وأكوابها والاطعمة الدسمة والمربيات والحلوى التى تخشى عليها من سطو الفئران والقطط •

فى هذه الغرفة النظيفة المرتبة النافخة فيها عطية انفاسها الدافئة الهادئة عاشت أربعة أعوام ، انسابت فى رفق باكدارها وأحزانها وومضات أفراحها الخاطفة التى تلتمع فى بعض الاحيان كالبرق الخلب فى الليالى الدامسة •

غالبا ما تنشب المعارك بين الزوجين لا لسبب انما لتبديد الرتابة غير المحتملة والافراج عن بعض الضيق المتوتر الحبيس الذى يحسانه فى غموض • انهما لم ينجبا طفلا طوال أربعة أعوام ولم يحدث مطلقا ما يؤذن بالانجاب ، فيقبل شهر ويدبر آخر وتهل سنة وتنصرم أخرى وهما يتساءلان فى سرهما علام هذا العبث المتعب من غير ثمرة • انهما يهرقان دماءهما فى أرض بور ويحرثان حيث لا ينبت الزرع • وقد زاد من حدة هذا الشعور عمقا وأذى هو الابن الثالث الذى رزق به الزوجان الآخران ، اختها صفية واخوه داود • فذات ليلة وبعد ان انتصف الليل قرع زوج اختها الباب وأعلن فى حبور ان صفية ستلد الليلة ودعا عطية أن ترافقه الى منزله كيما تعنى باختها التى فى سبيلها الى الوضع فصدعت عطية لامر زوج اختها ونهضت بالواجب كما تقتضيه صلة الدم • وبعد مخاض سهل محتمل وضعت صفية ابناً سميناً معافى انقض لمدة ثلاثة أيام على ازدراد السكر المذاب بالماء وما أن جرى الحليب فى ثديى أمه حتى راح يمتصه بنهم عظيم وكأنه يعتزم أن يحيا مئة عام ، ولفترة تطاولت خمسة عشر يوماً كانت عطية تبرح غرفتها كل صباح بعد أن يتناول سليم فطوره وتشخص الى بيت اختها كما تعنى بأولادها وتطبخ طعامهم وتغسل ملابسهم ، وكان سليم يأتى الى بيت

أخيه عند الظهر فتحمل اليه عطية غداءه ويتجاذبان حديثاً قصيراً ثم ينصرف ليعود فى المساء فيصطحبها الى البيت •

كانت اختها تحيا فى حال أيسر من حالها فهى تسكن دارا لوحدها فى ناحية نظيفة محترمة تدخلها السيارات وتتراقص فى جنباتها خيوط الشمس وما يفتأ هواؤها عابقاً بشذى الاشجار ، وصفية دوماً مستبشرة كانسان يتوقع انباء سارة • عليها كل مظاهر الزوجة السعيدة الموفقة الولود • فهى عريضة الصدر ناهدة الثديين مستديرة البطن مفتونة بالذهب تقتنيه بكميات كبيرة وتزين به معصميها وعنقها واصابعها وكأنها فرس مدللة الا انها ليست فى ملاحة عطية • فعطية انصع منها بشرة وأنحف بنية • يقوم تحت جبينها الناصع أنف مستقيم وعينان متكسرتان حالمتان وفم صغير يبعث صوتاً اخناً متضرعاً ذا رنين محزون• تبدو كتلميذة تعبة من جراء دراسة طويلة انهكت قواها • فهى مخذولة متحسرة على أمر ما ، تتفرج على الدنيا فى غير شوق • ويبدو التفوق فى كل تصرفات أختها فهى تملك شخصية اسرة قادرة على حل مشاكلها بيسر وهى المتحكمة فى شؤون بيتها ، وزوجها داود أرق حاشية من سليم وادمث خلقا وأسلس طباعا كما انه وديع سهل الاقناع حتى ان تشاجر وعربد كانت مشاجراته وعربدته ضربا من الهذيان وكأنه يمثل دوراً لم يتقنه ، دور الزوج المخمور العائد من الحانة ، فيفشل تمثيله ازاء الاسلوب البارع الذى تصطنعه صفية • تستدير عيناها الذكيتان الخبيرتان فى ثقة واعتداد وتربت على كتف الزوج المهتاج لغير ما سبب - أيها الزوج ثر فقد طال صمتك ولكن احذر ان تكسر كوبا ، أو تحطم ملعقة وهكذا تغلق باب الثلاجة على الماء الدافى ليستحيل ثلجاً •

أما زوجها سليم فهو الثائر الحقيقى الساخط المتبرم الضائق ذرعا بمحتوى حياته العديم الجدوى بسبب اخفاقه فى انجاب الاطفال • فبعد

نحو عام من زواجهما وهى فترة لامعة مشرقة كان سليم خلالها يفيض حبا ورعاية لزوجته الجميلة الشابة ، كان يبسط لها ذراعه لتضع عليـــه رأسها فى ساعات النوم ويمشط شعرها ويجلسها على ركبتيه وكأنهـــا طفلة من الاطفال • الا ان فكرة الاولاد صارت تغزو ذهنه وتوجع فؤاده ومما زاد هذا الشعور حدة هو ميل عطية الى الاكتئاب والضجر وكأنها تقول - اننا نحيا عبثا من غير أولاد - قالت لزوجها عشــية ان وضعت صفية ولدها الثالث - انها تلد بانتظام ما أسعدها - فأجاب سليم فى جفاء - نعم هذا أمر واضح -

وتابعت عطية تقول غير مبالية بنبرة زوجها الجافية - مريم هى الاخرى تنتظر مولودا هذا الاسبوع فأجاب سليم بسخرية - ما أسرع ما حملت فعقبت عطية - عام واحد مضى على زواجها اتذكر ؟ فهــز رأسه ولم يجب •

كلاهما يذكر متى وقع زواج مريم هذه : عاد سليم ذات ليــلة الى منزله ولما هم بفتح الباب سمع بكاء خافتا ينبعث من أحدى الغرف فحسب سليم انها عطية فأخذه القلق من أجلها واندفع نحوها مسرعا فلقيها ممددة على السرير ترنو اليــه وتبتسم وتبين ان التى تبـكى هى عروس صبية تخاف زوجها فى ليلة الزفاف وتحسب انه يعتزم خنقها فضحك الزوجان • وها هى ذى الزوجة الخائفة تنتظر مولودها الاول • قطع الزوجان نحو خمسين خطوة دون أن يتبادلا كلمة أخرى كان هو ينتعل حذاءين ثقيلين مسلح كعبيهما بالحديد يضربان الارض بعنف فيما هى تخب الى جانبه بنعل منزلى مسيب العقبين ، فيتناوب الصرير العالى المنبعث من حذائيه مع شخشطات نعليها الصغيرين فتأوهت فى آخر الامر وقالت فى رقة وكأنها تحدث نفسها لا زوجها بالذات •

- نحن متى أيهـا الرب -

فحدجها سليم بنظرة مغيظة مظلمة قائلا فى قسوة ـ بلغت المكان التى تضعين فيه سمك أنك لحية حقا ، صفية تلد ومريم تحمل وكلانا يكابد الهم ••• وضع لا يطلق •

وعلى حين غرة ضاعت نغمته المشتعلة فى تيار دافىء من الاحساس الرقيق فطفق يشكو حاله ـ افكر فى الامر تفكيرا منطقيا صائبا ••• اننى رجل قد أكون عقيما وقد لا أكون ، ومن يدرى علك تكونين انت العقيمة ان العقم فى النساء هو الغالب فثمة أمراض لا حصر لها تنوشكن وتتلف اجهزتهن ، شىء من مثل هذا قد طالعته فى الكتب ••• وعندئذ أية نقنقة تسمعينيها لا شىء من غير ريب •

فتأوهت عطية ـ حسنا ليذهب كلانا الى الطبيب •

فرمقها سليم بنظرة ذاهلة شاعرا أكثر من ذى قبل انها تضعه فى زاوية ضيقة الا انه لم يجسـر على المـكابرة قال آخـر الأمر فى استسلام ـ لكم أود ان أفعل ذلك فى يوم قريب •

وأخيرا بلغا المنزل وقد انجاب عن كليهما الشعور المرير الذى عانياه فى الطريق فخلع سليم ملابسه وأرتدى جلبابه الواسع الفضفاض وتنهد أكثر من مرة قبل أن يحتويه الفراش ، أما عطية فانسابت فى خفة خلف باب الصوان لتغيير ملابسها عامدة الا تترك لسليم فرصة واسعة لاجالة عينيه فى كتفيها وظهرها ، وظهرت بعد دقائق بثوبهـا المنزلى البسيط واتجهت نحو السرير لتضطجع الى جوار زوجهــا • فكرت عطية ـ ترى أي منا هو العقيم •

مضى شهران قبل أن يجد سليم متسعا من الوقت لاصطحاب عطية الى الطبيب • كل صباح تخرج الى السوق بثوب منزلى مفروج الصدر عند العنق دونما أية عناية مقصودة بمظهرها • تطالع وجهها فى المرآة فتجده دوما مدعوما برصيد جمالها الكئيب • فالهموم بكل ثقلها لم تنل

من استقامة أنفها وتكسر عينيها الحالمتين وشفتيها الرقيقتين المضمومتين بعزم صبيانى وبسمتها الطفولية التى تطفح بها وجوه الصبايا فى مدارس الريف •

تخرج بعلاقة كبيرة تتهادى بها تحت عباءتها التى تنوش بعض أطرافها الأرض الوسخة ، تخترق الزقاق بطوله حتى تصل السوق فتجده غاصا بالنسوة ، متلفعات مثلها بالعباآت السود حاملات علاقاتهن وحقائبهن يساومن فى الحاجة ويتظرفن مع البـاعة ويثرثرن ثرثرة لا تنتهى الى غاية • معظم مشتريات عطية لا لزوم لها ولكنها تفعل ذلك فى سبيل أن تمحو الفارق بينها وبين زوجات ولودات مرضعات ، تجد انها مثلهن فى كل شىء فهى تضطجع الى جانب زوج وتختلط ملابسـه بملابسها ويتحدثان حديث الازواج غير انها لا تنجب أطفالا مثلهن ، فهى اذن من طبيعة أخرى ، شىء مختلف عن الاخريات ، قد تكون اسوأ ، كانسان يملك ساقا واحدة أو يشكو حبسة فى لسانه وقد يكون أفضل وهذا ما تود أن تجمع له أسباب الاقناع كيما ترسخه فى ذهنها •

فى أيام الشتاء تطبخ طعامها فى غرفتها ، تلتمس الدفء الذى يبعثه طباخها النفطى الصغير ذو الفتيلة الوحيـدة • تحمل الى الغرفة أنية الرز والسمن وخشبة تقطيع اللحم وتعتكف طوال سحابة النهار ، قد تدثرت بدثار سميك تعمل فى تطريز أقمشتها ، بينا يئز الطبـاخ من حولها وينش السمن وتبقبق المياه الغالية ولا تفتا عيناها الناعستان تطالعان المارة من النافذة الصغيرةوقد انجابت عنها الستارة انجيابا جزئيا• تعمل فى جد وحماس وكأنها تبارى فى مسابقة عامة يتوقف على فوزها مكسب كبير •

وفى أيام الصيف تنضم الى جوقة الطباخات فى المطبخ الكبير حيث تحتشد النسوة النزيلات المطقطقات بالقباقيب والساكبات المياه الوسخة

والضاجات بشتى التعليقات الهازلة . كل تقف ازاء طباخها تتذوق طعامها ، دارسة ملحه وحموضته منشنشة نشنشة مسموعة واذ ما ينضج طعام عطية تفرغ حاجتها منه فى صحن واحد مبللة الرز بماء المرق وأحيانا تفصل بينهما فى صحنين صغيرين . ليست ذات هوى فى طعامها وكثيرا ما تغرى أطفال المنزل أن يتحلقوا الى جوارها ليشركوها فى تذوق الاكل ولكم يؤلمها الا تجد اولئك الاطفال الذين لم تستقم ألسنتهم بعد وتعوزهم الكلمات يمتدحون طبخها ، وتهب أحياناً صحونا كاملة لجاراتها وعندئذ تنتفخ بالزهو والخيلاء كلما تلمضت الافواه وبدا الشره فى الاعين ، انها من غير ريب طباخة ماهرة وقد تأتت لها تلك المهارة بسبب تفرغها لاشغال بيتها دون مضايقة الاطفال المحرومة من انجابهم .

فى المنزل عدد من الاسر قد استأجرت كل منها غرفة واحدة ، فعن يمين عطية زوج وزوجة وأطفال وعن شمالها زوج وزوجة وأطفال وأمامها صف طويل من الشبابيك والابواب وراءها اسر أخر ثرية بالاطفال وفى الطابق الاسفل صخب وضجيج وثرثرة مع عويل وهدهدات وترانيم . كافة الزوجات حبالى ومرضعات ومنهن فى سبيلهن الى الحمل والرضاعة . تجد الامهات منهمكات بغسل أطفالهن واطعامهم بحماس صادر عن مشاعرهن الصادقة ولا تجدهن فى أية ساعة من ساعات النهار وحتى فى بعض ساعات الليل يشكين الفراغ والضجر بينا هى تتشاغل بغير جدوى بأعمال خفيفة مسلية لا تهدف فى حقيقتها لغير قتل الوقت . فهى تطبع الصور على الاغطية وتعمل على ملئها بالخيوط الملونة فتنفق فى هذا الجهد المريح ساعات طويلة لا يؤلمها غير عينيها المحدقتين تحديقا موصولا فى خطوط الصور . تجلس الى النافذة الصغرى وتروح تتشاغل بنقشها بينا ظهرها يتقوس وعيناها

تطرفان • وكلما ارتفعت ضوضاء ما فى الزقاق رفعت رأسها وتطلعت الى أناس غرباء يدبون الى أعمالهم ومشاغلهم غير رافعين اليها عيونهم ويصدف أحيانا أن يحدجها أحد المارة الوقحين بنظـرات تخلو من البراءة فتغتاظ عطية وتستثار فتشتمه فى سرها وتتوارى بعينيها وراء الستارة •

وفى سبيل اضفاء التنوع على أعمالها تعمد الى الطست فتضع فيه ملابس لما تتسخ بعد ، تصب عليها الماء وتدعكها فى حمية وتزرق البياضات بصبغة النيلة وتعتصرها فى عناية وتحملها فوق السطح لتنشرها عـلى الحبال مثبتة فوقها القراصات • وقد تفتق فستانا وتعيد رتقه زاعمـة لنفسها انه قد ضاق فى الصدر أو اتسع عند الخصر ولا تعدم فرصة دون أن تبرهن لجاراتها انها أكثر منهن حرصا على نظافتها ونظافة بيتها • فهى تغتسل مرتين فى الاسبوع وتستهلك مقـدارا كبيرا من الصابون المعطر وتمكث فى الحمام نحو ساعة • فى أيام الشتاء تحمـل معها طباخها لئلا ينوشها البرد وحال ان تفرغ من تحميم نفسها تعصب رأسها بمنديل كبير أحمر ذى ذوائب وتبالغ فى تجفيف شـــعرها وتأوى الى فراشها مبكرا • وكان يحز فى نفسها انها لا تقرأ ولا تكتب ولذا كانت تضجر من رؤية الكتب والجرائد وكل ما تعرفه فى هـذا الشأن هو قراءة أرقام الباصات فتأمن الجهة التى تقصدها • وحاولت غير مرة ان تتعلم الخياطة واختلفت بعض الوقت الى خائطة من معارفها ولكنها لم تكسب علما ذا بال وما يفتأ المقص يرتعش بين أناملها كلمـا همت ان تقطع به قماشا جديدا ، وكل ما تنجزه فى هذا الميدان هو رتق قمصان زوجها •وكان حلم امتلاك ماكنة تدار بالقدم قد ملك مشاعرها، فهى ضجرة أبلغ الضجر من ماكنة صفية اليدوية البعيـدة عهـــد بالاستعمال ، مخرخشة متعبة لليد تجعل ظهرها محدوبا طوال النهار

فضلا عن احتمال منة اختها ·

وعندما تعدم كل وسيلة لالهاء نفسها تأوى الى فراشها حتى فى رابعة النهار ملتمسة راحة النوم ، فتتقلب الى كافة الجوانب تطوى ساقيها وتمدهما ، تصلب عنقها وتميله زافرة متنهدة حتى يدركها التعب ·

تتأمل فى حياتها الصعبة مع الرجل الذى يشاركها سريرها فى ساعات الليل · ان اختها صفية تحيا حياة أفضل ومنسجمة مع زوجها غاية الانسجام ، ولم يشجر بينهما خلاف ذو وزن ، ولم يوجه اليهـا كلمة نابية أو جارحة وكأنهما ما برحا ينعمان بشهر العسل ·

تتساءل عطية متى يذهب هذا الزوج لاحد الاطباء فيعالج له عقمه ويشفيه · بعض النزيلات النزاعات الى التفكه والمزاح يثرن شجونها وآلامها · قد تأتى احداهن بابنها الرضيع وتدسه الى جانب عطية فيما تغط فى نومها واذ ما يستشعر الرضيع الوحشة ينتفض ويأخذ بالبكاء فتهب عطية من نومها مذعورة فتلقى النزيلة المتمازحة تقهقه من وراء الباب غارقة بضحكها ـ لقد ولدت ابنا يا عطيـة فهنيئا لك ـ وتذهب بعضهن الى بعد من هذا : تتغفل عطيـة وتضـع فى قميص المـرأة المحرومة من انجاب الاطفال رضيعها جاعلة شفتيه تلمسان ثديها فيتململ الرضيع ويأخذ بمص الثدى وكأنها امه فتجفل عطية اجفالة تكاد تذهب بصوابها فتمسك بالرضيع وتهم أن تلقى به الى الارض وتدك عظـامه فتندفع اليها المتآمرات ضاحكات ساخرات ـ هيا ارضعى طفلك يا عطية ·

هذه الضروب الطفيفة من المضايقات الهادفة الى تذكير عطيـة باخفاقها فى انجاب الاطفال تحز فى نفسـها وترسب حقـدا مكظوما لذلك الرجل الذى لم يحن ميعاد أوبته بعـد · انها لا تحبه ولا تهنـأ بلقائه ولكنها لا يسعها ان تكرهه لا لسبب سوى انه الرجل الوحيـد فى حياتها المفعمة بالمنغصات والاحزان ·

فى المساء يعود زوجها ملطخا بالزيت تعلو وجهه تقطيبة كالحة وحاجباه معقودان فى اجهاد وكأنه عائد من معركة خاسرة ، ويشرع فى الشكوى حال ان يجد جسده مريحا فوق القنفة . يشكو مصاعب العمل وشح الارزاق وميل الناس الى المخادعة والرياء وجر المكاسب الباطلة والمصير المفجع لصناعة مثل صناعته أخذت تبور وتكسد بسبب جمهرة من المتطفلين . ولا يفتأ ينقل لها طرفا من الجرائم التى يطالع اخبارها فى الصحف . موجة كاسحة من حوادث السطو والسرقات والقتل . رصاص يخترق الجماجم وقتلى فى المزارع واغتصاب الاعراض علانية . كأن الناس قد فقدوا طاقة الاحتمال لضغط ما ، فأخذ كل يشق طريقه مستغنيا عن تفهم أهداف الغير فى سبيل أن يحقق عملا بارزا وان ادت به الحماقة الى المشنقة والسجن .

كذلك يثرثر نحو نصف ساعة وكأنه يلقي موعظة فيدرك بعد حين ان عطية متشاغلة عنه وقد ضاع خطابه الطويل فيترك شكاواه جانبا ويروح يسألها بجفاء .

ـ كيف أمضيت النهار ؟

واذ ما تريه خيوطها ونقشها وأغطيتها الملونة بالازهار يشرع بالهزوء منها . يفعل ذلك بمرارة بالغة وقد ضاقت فرجتا عينيه واسترخت ذراعاه على ركبتيه مؤرجحا جسده تأرجحا بطيئا متوافقا مع كلماته الموجعة يقول ـ ما جدوى هذه الزخارف والناس يتقاتلون من أجل كسرة خبز . انك لم تفهمي ايما أمر من أمور الحياة ، لو ادركت فقط نمط العمل الذى امارسه فى ساعات النهار . تصورى بعقلك الصغير هذا ورشة أكبر من غرفتنا بأربع مرات ملاى بالحديد المصرصر ، وينبعث من الارض والجدران والسقوف أزيز موصول مدو ، ان الفولاذ نفسه يزفر ويتنهد حين يكشط جلده . لدينا عامل ولا بأس من

التفاصيل لربما تجعلك أكثر فهما ومعرفة ، نعم ثمة عامل بائس منكوب يحمل مطرقة كتلتها بغير مبالغة تفوق حجم رأسك حتى عندما ينتفش فوقه الشعر ، يغتذي هذا العامل بالخبز والشاى وحدهما ويضطجع في الليل على مصطبة واحيانا يدخل السينما في الدور الاخير ويجلس في الموقع الرخيص ولا يبرح السينما حتى الصباح وسجن ذات مرة من أجل هذا ، بالامس سرق بعض اللصوص لحافه فبات ثلاث ليال بغير لحاف في هذا البرد حتى تصدق عليه أحدنا ببطانية مهلهلة .

تساءل عطية وقد غدا الضيق ينتابها ويوجج اوار غضبها .

- ما الذى تريده بكلامك هذا هل تريدنى أن احمل مطرقةأم التحف ببطانية مهلهلة ؟ التمس جديثا غير هذا .

فتنتفخ الاوردة في عنق سليم وتتراكم التجعدات في جبينه العالى بسبب من اتساع عينيه المحتقنتين من الغيظ فيهدر - لا أقصد هذا أيتها الغبية الحمقاء فانت لا تصلحين لشيء ، كل همك ابتزاز أموالى وبعثرة جهودى وعرق جبينى . انك لا تنقطعين عن الاختلاف الى السوق لشراء الازرار والدبابيس والخيوط والعصائب والدنتلات والكاريات والطباقات . ما نفع كل هذا اننى قانع بحياتى كيفما كنت ولم اعد أحفل بالجمال طالما قبح الحياة يترصدنى في كل مكان .

انك تبالغ - تعترض عطية - اننى اقتصد ولا أحفل بالتفاهات فيندفع سليم نحو الصوان عاملا اصابعه في المفتاح ليخرج بعد لحظة ، ضروب العطور وقطع الاقمشة والاويات والخيوط الحريرية ناثرا جميعها في ارجاء الغرفة .

- ها انظرى انك تقتصدين كان يمكن أن استفيد من أثمانها في تحسين مظهرى وترتيب بيتى . كل مكاسبى تذهب الى جيبك حتى لو اننى تعطلت يوما واحدا لما وجدت بين يدى درهما واحدا اسد به

حاجاتي، انك أشبه ببالوعة شرهة ومن ينظر اليك يحسبك زوجة موظف ميسور الحال يعمل وراء منضدة من بلور ويخدمه الفراشون بالقهوة والشاي . انما الحقيقة أنا رجل عامل ، مغمور ، من الكادحين لم اوفق في عمل حتى زواجي بك كان غلطة .

فتنفجر عطية بالاعوال

ـ هذه النغمة أيضا ، يا الهي استرجع امانتك ، احملني الى ملكوتك ، أواه صفية أية هاوية احتفرت لي . انت مثقلة بالذهب وتنجبين الاطفال .

تصيب كلماتها موضع الألم في نفس سليم فيصرخ في غيظ ـ لا أريد وريثا لاملاكي ومقاطعاتي ، الاطباء ماكرون لا شيء لديهم غير الكلام هات دراهمك أيها المريض وازرق كذا وكذا من الابر واشرب كذا وكذا من الدواء والناس من حولهم يقضون جوعا وضنكا وانني قد انفقت خمسين دينارا لاجل علاجي . كان الطبيب يؤكد لي في كل مرة انني سأشفى وأنجب أطفالا . كنت أترك عملي كل يوم لاذهب اليه من أجل أبرة يخزني بها في غير مهارة فيجعلني اترنح في الطريق وأجر ساقي جرا . والنتيجة هباء وعبث .

فتذكر له عطية المزاحات السمجة التي تعمد اليها النزيلات العابثات فيحتدم غضب سليم أكثر من ذي قبل ، ناثراً عليهن أفحش السباب غير مبق كلمة بذيئة لا تجد طريقها الى حلقه صابا شتائمه في عربدة من وراء الجدران السميكة كحمم سود فيتسمن النزيلات في غرفهن غير متجرات على منازلته يقول ـ انني رجل ، رجل قادر عليكن جميعا غير انني لا أريد جراء يعوون في بيتي ويحرمونني النوم والراحة .

يتمتن في هزؤ ـ هراء والا لجعلت عطية تنجب لك طفلا .

تأوى عطيــة الى الفراش وهى مثقلة بالعــذاب الذى جرعها اياه سليم • يضطجعان بادىء الامر متباعدين كل قد احتل طرفا من السرير عامدا أن يثبت فى بقعته بعناد وكأن الآخر لا يهمه ولا يعنيه بل ولا يضطجع الى جواره ، كذلك ينامان أو يتظاهرا انهما نائمان والحقيقة ان كليهما مستيقظ بكل حواسه • فينهض سليم مبكرا فى الفجر فيتطلع جانبا بزاويتى عينيه ليس غير ، فيجد عطية مستلقية على ظهرها ويديها مسبلتين الى جانبيها ولا يبــدو انهــا تململت طوال الليــل • تتصاعد أنفاسها فى لطف وهدوء وبراءة وقد تبعثر شعرها الكستانى وغطى جانبا من الوسادة فيدنو سليم لايقاظها وهو يرنو برفق وحنــان الى وجهها الصغير الشاحب • تتنهد عدة مرات قبل ان تفتح عينيها الناعستين فتستشعر ان سليم قد غدا فى متناول تعنيفها فتزم شفتيها وتنهض فى تثاقل وكأنها وحــدها فى الفراش فيتبعها بنظراته حيثما اتجهت وهى تتجنب باصرار عينيه النادمتين الساعيتين الى المصالحة • واذ ما يطول صبر الزوج ويتجاوز الحد الذى يحتمله يترك السرير ويتجه نحوها واضعا كفيه على منكبيها متطلعا فى لهفة وتساؤل الى عينيها اللتين تدوران الى كل الاطراف سوى وجهه ـ تقول ـ أنسيت ما فعلته بالامس اننى لاخجل اللحظة حتى من رؤية وجههن ولســوف لا أضع قدمى فى العتبة ولا اصنع لك الشاى •

ـ انت تثيريننى •

ـ ابتعد عني انك تدفع بي الجنون ان بقيت من عمرى بقية كافية•

ـ عطية دعي هذا الآن اننى نادم لنتصالح •

ـ ابتعد

تغدو المصالحة بالنسبة الى سليم قضية ذات خطورة بالغة فالدقائق تتعاقب ومبارحته البيت قد غدت وشيكة وهو لا يسعه ان يخلفها وراءه

مكلومة الفؤاد معذبة فيهتف فى ضنك وشوق فيما هو يحتضنها بين ذراعيه ويشرع فى تقبيل شعرها •

ـ عطية غير ممكن نتصالح •

وأخيرا يشرق وجهها بابتسامة باهتة مشوبة بالكدر المترسب فى أعماق نفسها ، كدر من الضيق والعتمة والضجر •

وذات يوم كشف لها عن سره قال ـ اننى مذنب يا عزيزتى اذ حرمتك انجاب الاطفال ففى انجابهم متعة كبيرة للام ولكن ليس فى مقدورى عمل شيء •

والحقيقة ان سليما استشار طبيبا اخصائيا فاجرى له فحصا شاملا وتبين ان عقمه ناشيء عن مرض زهرى اصيب به قبل زواجه بسنوات ! فوضح لها سليم بقنوط •

ـ لست أدرى كنت فى شبابى قويا معافى وذات يوم لزمت الفراش ورحت أشكو ألماً حاداً • ان بغيا لا أذكر اسمها عدتنى بدائها فنقلونى الى المستشفى ومكثت هناك بعض الوقت فعالجونى غير انهم بتروا من جسدى شيئا حساسا هاما ذلك انهم جعلونى منقوصا •

وشرع يدخن فى شره على طريقة المعزين فى المأتم الذين أصابهم من الفاجعة أبلغ الضرر • أنفاسا متلاحقة وأطراقه ذاهلة وتفكر عميق لا ينتهى الى غاية •

كان يلتهم فطوره فى غير كياسة فهو متعجل دوماً ، محتسياً كوب الشاي الفائر فى جرعات ثقيلة تجعل شفتيه ترفان وتطقطقان • تقعد عطية الى جواره تخدمه فى تفضل غير متناسية اساءته اليها واذا ما يفرغ من فطوره يعاود اشعال سيكارة أخرى ممتصاً دخانها الرمادى الكثيف بأكثر ما فعل فى سيكارته الاولى ، يقوم نحو الباب غير انه لا يفعل ذلك دون أن يلتفت الى الناحية التى تكون فيها عطية • انها

تدرى أن قلبه فى هذه اللحظات قد غدا رقيقاً مسالماً محبا للصفاء والوئام ، انها الساعة التى يبرح بها منزله ويغيب عن عطية ساعات النهار كلها .

وأحياناً يقبل الى المنزل كالموج الذى تسوقه عاصفة هوجاء قد استثار فى نفسه شعور شكوكى مرتاب . يندفع بقلق كبير متوقعاً أن يلقى عطية فى أحضان رجل آخر وحال أن تقع عليها عيناه يشعر بالابتراد والتجمد ، يلقاها منحنية تطرز الاقمشة والخامات فيوليها ظهره متظاهراً انه قد نسي مسماراً أو مفتاحاً فينقب فى الجرارات محدثاً ضوضاء مفتعلة ليريها بعد حين قطعة صدئة من الحديد يزعم انه قد جاء من أجلها ، وان لم يجد عطية فى البيت يتفاقم قلقه ويسخط عليها أشد السخط فيهرع الى بيت أخيه فى بادىء الامر فان لم يجدها يأخذ بطرق أبواب جاراتها وصديقاتها سائلاً فى غير ما تستر — أعطية عندكم — ؟ انه ليجعل زوجته تحمر استحياء اذا ما التقت بهن بعد حين ، وقد يعنفها على مشهد من الناس ولا يتورع عن ضربها وشتمها .

وحتى فى ساعات هنائه وصفائه تداخله الريبة نفسها وتعكر عليه مزاجه الذى غدا يرق ويتلطف . يتودد اليها ويمسح على شعرها ويتأمل حاجبيها الهلاليين ويمسدهما بأنامله ، ممعنا النظر الى عينيها الحالمتين المطوقتين بمسحة الكآبة ، يضمها الى صدره فخورا بها مستطيبا دفئها وطراوتها ، ثم يحملها الى ركبته ويهزها هزا رقيقا موصولا . تعتصم هى بالصمت الا بالقدر الذى يساعد على متابعة هذا التدليل . يجدها سليم كئيبة باردة فيساوره احساس مضن انها امرأة عاشقة وليس هو الذى يملأ فراغ فؤادها ، فيرفعها عن ركبتيه متأملا قسماتها الحجرية سائلا فى امتعاض — علام انت كذلك ، انك تسلكين معى سلوك التاجر

مع زبون ملحاح مضجر لسبب ما لا يريد أن يخسره • سلوك اصولى متحفظ •

تبدو فى الافق نذر العاصفة الوشيكة الهبوب • غير ان عطيـــة تداركها فى جهد فتبذل ملاطفاتها كيما تبدد نقمته وشكوكه • ولكن صعوبة الحياة فى هذا الجو المثلوج المشحون بالبرودة وعدم الانسجام المتصدع فى حجارة زاويته كان يشتد ويتوتر مهددا فى كل لحظة بأمر خطير • انه رجل عقيم هذا ما وعاه من كلمات الطبيب الذى تولى فحصه• انه انسان ناقص ومن حوله عالم فسيح يعج بالرجال السويين • ان شاءت عطية ان تلتمس صحبة احدهم للبى النداء دون لحظة تردد •

ذات يوم من أواخر شهر أيلول أعلن لها سليم نبأً غريبا ـ قال ـ اننى سأصطحب معى عند الظهيرة صديقا وفيا تعرفت عليه فى المستشفى يوم كنت أراجع وتابع يقول فى نبرة رقيقة ملاطفة ـ اطبخى لنا شيئا لذيذا وكمية مضاعفة وابتاعى بعض الفواكه •

فاستوضحت عطية فى خجل عن هوية هذا الصديق فأجاب سليم فى جرس متباه ـ انه موظف صحى يعمل فى المستشفى ، دمث الخلق وعلى قدر من الثقافة فتضاحكت عطية وقالت

ـ هذا أغرب حادث منذ ان تزوجنا •

سأل سليم ـ ما الغرابة قالت ـ الغرابة ان تصطحب رجلا غريبا الى غرفتنا وأنت تتأجج غيرة فأجاب سليم ـ ليس كل الناس سواسية فقد عثرت على صديق حقيقى ـ أفادنى بنصحه وعلمه وأقول لك الحق انه غير البعض من طباعى ولا سيما معك •

فدهشت عطية ان يكون رجلا لم تقع عيناها عليه بعد يعمــــل لمصلحتها ويمد زوجها بالنصح ، وانها فى الحقيقة قد لمست فى سليم طيبا وكرما لم تعهدهما فى ماضيات أيامها •

وفى الصباح درجت الى السوق الصاخب • كانت نسمات باردة تهب فى الساحات العامة وقد تهادت غيوم صغيرة بعيدة تبشر بدنو الشتاء • وأجابت عطية على استفهامات النزيلات عن امتلاء علاقتها هذا اليـــوم

ـ سيفد علينا صديق لسـليم •

ولم تخف عن احداهن النبرة التياهة التى اصطنعتها عطيـــة • وطوال الفترة التى سلختها فى اعداد الطعام كان ذهنها ينصرف الى الزائر المرتقب ، عن شكله وهيئته ولباسه • انه موظف صحى كما أعلن لها سليم وهى وظيفة ليست غريبة عنها ، فهى تذكر بوضوح ان موظفـا صحيا كان قد أحبها فى قريتها وأحبته غير ان ذلك الحب لم يسفر عن شىء ذى بال •

وعند الظهر أقبل الزائر • كان زوجها يتقدمه عند المجاز ليريه السلم وظهر الاثنان بجلاء على الطارمة • كان الزائر يضع عوينـــات خضراء اتقاء لاشعة الشمس قال سليم يقدمه اليها ـ هو هو زائرنا الكريم السيد جميل موظف صحى فأحملى الينا الطعام •

تأملت عطية فى الرجل الذى منحه زوجها هذه الثقة • كان نحيفا متوسط القامة ذا بشرة سمراء داكنة ينهض على الارض بجسد حسن متناسب لا ينبأ عن متانة كبيرة ، واذ ما رفع عويناته رأت فيه عطية انسانا محترما ذا شخصية مقبولة ليس على قدر هام من الملاحة • كان دون سن زوجها فهو يقرب من عمر زوج اختها • اتخذ مجلسه عند طرف القنفة القريب الى النافذة الصغيرة فيما تراجعت عطية قليلا الى الوراء وجلست على حافة السرير متأملة وجه الزائر وعينيه وياقة قميصه •

أكدت عطية لنفسها انه ليس فاتناً سوى ان عينيه انيستان تكادان تخلوان من ايما بارقة من المكر ، ومظهره أنيق مهندم لا سيما ربطة عنقه فهى من الحرير الخالص البني اللون تبعث بريق واشعاعات كلمـا

مال بها صاحبها من جانب الى جانب • واذ ما جلس الى مائدة الطعام أثار عطف عطية واشفاقها لتمهله فى الاكل • كان يرفع الى فمه ملاعق نصف مليئة مستانيا من المضغ بينما مضى زوجها غازياً محتويات الصحون بنهم وخشخشة ، رامقا ضيفه بنظرات مشجعة أن يحذو حذوه • وفى نهاية الامر تدخلت عطيـة وهى خجلى مترددة يغيض الدم فى وجهها تارة ويشيع أخرى •

ـ ما بالك لا تأكل أيها الاخ • اننى لاخشى الا يعجبك طبخى •

وسر سليم ان تتولى عطية ضيافة الزائر فمال اليه معاتبا •

ـ كل لسنا بغرباء اننا أشبه بعائلة واحدة •

فرفع الزائر الى عطية عينيه الحالمتين متفرسا فى وجهها الرخامى الناصع المكتسي بالطيبة والبشاشة قال معتذرا •

ـ هذه طاقتى وأقول بصراحة اننى لم أذق طعاما أشهى منه •

فغضت عطية من ظرفها فيما كان الزائر يواصل تحديقه الى وجهها فكرت عطية ـ ان وراء هدوئه وسكينته حرارة وفوران ـ وانتظرت بصمت أن يتواصل الكلام من جديد فينبعث صوته الواطىء المرن المشبه بجرس صغير من الفضة • وحانت فرصة أخرى حين وضع الزائـر ملعقته معلنا فراغه من الطعام احتجت عطية ـ ما اسرع ما فرغت •

فرفع اليها عينيه وهما تبتسمان وتشكران • وكذلك فرغ سـليم متجشأً بصوت مرتفع ماداً الى الامام كفيه التسخين فيما يضغطان مرفقاه على خاصرتيه ، وفسر جميل سر طعامه القليل ـ اعتدت أن أتناول مقدارا قليلا من الطعام وليس ثمة ما أشكوه فى صحتى •

ثم تقدم الزائر الى المغسلة فاعانته عطية بصب الماء على يديه ، فامتنع فى بادىء الامر ان تخدمه بهذا الشكل المهين غير ان عطية اقنعته الا طريقة اخرى لغسل اليدين • كانت تمسك ـ بدولكة ـ كبيرة ولاحظت

ان الزائر رأى الى أصابعهـا البيضاء المنضمة على قبضة الدولكة فـلم يضايقها ذلك البتة •

ثم انصرفت الى المطبخ تعد لهما الشاى فرحة غاية الفرح بالانسجام الرائع بين زوجها والزائر متمنية ان تتواصل زياراته كيمـا يتخفف الضيق الثقيل الذى ينؤ به ظهرها • وحال ان وضعت القورى فوق الطباخ ارتقت السلم ثانية واقبلت فى خفة الى خزانة التيل فأخرجت ثلاثة صحون وثلاثة أكواب كبيرة نظيفة بيضاء • كان زوجها يشرح للزائر طريقة السكن فى مثل هذه البيوت الكبيرة قال ـ اننا هنا سـتة عوائل كل مستقلة فى غرفة والعادة ان تستأجر احدى العائلات المنزل بكامله ثم تشرع بتأجير الغرف للعوائل الاخرى وتشترك جميعها فى دفع نفقات الكهرباء وتنظيف المرافق الصحية ، ولاجل أن لا تؤدى عائلة لعائلة خدمة معينة يتزود كل رجل فى المنزل بمفتاح خاص يفتح به الباب دونما حاجة لقرعه كيما يفتح له من الداخل ، وأخرج سليم مفتـاحه الخاص من جيب سرواله وكان مفتاحاً صغيراً مسنّن الحاشية مربوط بسلسلة دقيقـة •

فتطلع جميل الى جوانب الغرفة قائلا بانشراح ـ انها غرفة انيقة نظيفة وأثاثها مرتب •

فضحك سليم باقتضاب وقال ـ ان ذلك من حسنات عطية •

فاستدارت عطية وشكرته بابتسامة واستتلى يقول اننا كسبنا النظافة وخسرنا الاولاد ـ فطمأنه جميل ـ قليلا من الصبر عسى الله يمن عليكم بغلام • ليست مشكلتك مستعصية الى الحد الذى تتصور فأمامنا أبواب أخرى سوف نطرقها ونصل الى حل •

وقبل أن تمضى خمس دقائق عادت عطيـة مرة أخرى محملة بالشاى الفائر • كان الرجلان يواصلان حديثهما فى موضوع الحمـل

وبدا لها ان الزائر غير راغب فى خوض موضوع كهذا فى حضرتها ولذا فقد لزم الصمت فتقدمت عطية نحوهما بالصينية فأخذ جميل كوبه بامتنان ثم عرجت على زوجها فمد ذراعه بلا مبالاة وسحب كوبه ثم تناولت هى الكوب الثالث وجلست قبالهما ترتشفه بهدوء قال جميل :

ـ ان السكنى فى مثل هذه البيوت تجعل الانسان يحيا فى خضم الحياة وفى صميم لجتها ٠

فهز الزوجان رأسيهما مؤيدين ما ذهب اليه الزائر الا ان سليم عقب بعد لحظة ـ ولكن لا تنسى الازعاجات التى تنشأ بسبب احتكاك عدد كبير من الناس فى مكان واحد ٠ اننا نعانى الكثير منها وعقبت عطية أيضا ـ ازعاجات فى الليل والنهار وبعض النزيلات سيئات الخلق ويملن للمزاح ٠

وأخيرا نهض الزائر فشمل عطية بنظرة وداعية رقيقة ، فزايلها شعور القلق الذى ساورها لدن ان شملتها عيناه لاول مرة ٠فجمعت الاكواب فى الصينية ومشت خلف الرجلين بخطى وئيدة دون ان تجد السبيل لتحديد معنى افكارها الغامضة ٠ انها سعيدة اليوم والسبب ان سليما كان لطيفا معها ، وهبطت السلم وهى تبتسم فى رضا وارتياح كفتاة خطبت لتوها فعاد اليها سليم بعد لحظات هامسا فى اذنها وكأنه يستأذنها ـ سأخرج مع جميل وأعود فى المساء ٠

بعد عدة أيام عاد سليم مبكرا فاستقبلته عطية باسمة فرحة قال فى غير تمهيد وعلى محياه سيماء الارتياح ـ وعدت جميل فى المقهى ٠

وطفق يخلع ملابسه المزيتة ويلقى بها على القنفة فتناولتها عطية وحملتها الى المشجب وصورة جميل تغزو ذهنها مثيرة فى نفسها ذكرى حادث سار ٠ فقد كانت أيامها الاربعة التى تلت زيارة هذا الرجل لبيتها مريحة حقا ولم يعمد سليم الى اثارة أى من المتاعب بل لاطفها وأبتسم لها وسلك أفضل السلوك ٠

وانشأ يحلق ذقنه أمام المرآة فانتحت عطية ناحية السرير مسندة كوعها بالوساعد العالية ترنو الى زوجها وتتنهد وتبتسم • قال سليم موليا اليها ظهره •

ـ اننـا نجرب علاجا جـديدا ونأمل أن تنفرج مصيبتنا فى وقت قريب فتحملين •

فشاعت على قسماتها ابتسامة عريضة وقالت فى جذل •

ـ اهو الطبيب الذى ارشدك اليه جميل ؟

ولاحظ سليم انها نطقت بجميل بحرارة والفة فرمقها بنظرة خاطفة جعلها تحمر قليلا وتلوذ بالصمت قال والصابون يملأ وجنتيه وذقنه •

ـ اننا نجرب هذا كل ما هنالك فقد يصطحبنى لطبيب مشـهور كبير فيفحصنى ويصف لى العلاج • اننا نجرب كما قلت فعسى أن تنجح تجربتنا •

فتنهدت عطية أكثر من ذى قبل رافعة كفيها الى السماء ـ عسى الله يمن علينا رحمته •

وتابع سليم يقول ـ اننى لمست فى جميل انسانا طيبـا وصديقـا وفيا ـ ثم سألها فجأة ـ وانت هل أعجبك ؟

فأجابت فى برود وعلى شفتيها ابتسامة باهتة

ـ رجل مؤدب اننى احترمه كثيرا ـ وشاع الدم فى وجهها كرة أخرى •

واذ ما فرغ سليم من حلاقته غسل وجهه وارتدى بذلته النظيفة فتبعته عطية الى الباب وفحصت اناقته باتقان الا انها أزعجته ازعاجاً طفيفاً حين أعلنت ـ صفية حامل بابنها الرابع •

فأجابها سليم دون أن يفلح فى اخفاء امتعاضه •

ـ مالنا وصفية ، لتحمل بابنها العاشر •

وحال ان توارى عن ناظريها استشعرت الخجل لاثارته بملاحظتها المؤلمة •

كان ذاك نهار السبت وهو اليوم المخصص للاستحمام وغسل ساحة البيت بالماء • نظرت الى ساعتها كانت قد بلغت السادسة ـ وساعتها هذه رجالية كبيرة مطوقة بسلسلة من الذهب أهداها اليها سليم أيام الخطوبة ـ تأففت لغيرما سبب وفركت ذراعيها وحدقت ملياً فى خزانة ملابسها وألقت نظرات طويلة الى المرآة • رفعت حاجبيها وكشفت عن أسنانها ولاحظت ارتفاع ثدييهـا واستعرضت قامتها من الرأس الى القدم ومن كافة الجوانب كما انها مسدت عنقها النحيل وترقوتيهـا المتعظمتين فراودها خاطر صبيانى أهى جميلة ؟ يفتن بها الرجال ، الا زالت صبية ؟ أهى موضع اهتمام احد ؟ وأفاقت من هذه التأملات حين دعتها النزيلات للنزول الى الطابق الاول صائحات فى حدة ـ عطيـة هات مكنستك وتعالى •

انه يوم السبت كما قدمنا وهو أحفل أيام الاسبوع بالصخب والقرقعة • كن النزيلات يتأهبن بمكانسهن وسطولهن للغسـل والتنظيف فتشترك معهن عطية كما يقضى العرف فى المنازل المشتركة • خلعت فستانها الثمين فى الحال وارتدت فستانا بيتيا سميكا من الجيت وانحنت نحو الارض جاذبة مكنستها من تحت السرير وعند المراة نفضت رأسها بعنف حتى اهتزت خصلات شعرها ومضت نحو السلم • كان فى الطابق الاسفل خمس نسـاء متزوجات قد احفين أقدامهن وعرين سيقانهن الى ما فوق الركبتين • كن جميعا محلولات الشعر لا يجعل محياهن أى دهان ، يثرثرن ويمرحن واذ ما ظهرت لهن عطية بوجهها الشاحب الصغير وكيانها المستدق الناعم وصدرها الشبه المستوى أنفجرن لائمات ـ ما هذا الذي تفعلينه يا عطية هل أنت ترضعين أطفالك

أم تضعينهم فى الفراش ـ وكان معنى هذا اللمز واضحاً لعطية فاعتصمت بالصبر اعتصام القديسات الكاظمات الغيظ • فتقدمت احداهن بسطل من الماء وسكبته عند قدميها وأمرتها أن تكنس المجاز وهو حصتها فى كل عملية كنس ، فامتثلت عطية بالامر وشرعت تمس الارض المبتلة مساً رفيقا ومنكباها الصغيران يختلجان ورأسها يتذبذب • كان ضجيجهن ينبعث من وراء ظهرها فلم تشأ أن تلتفت اليهن •

واذا ما فرغت من كنس المجاز عمدت الى تسخين قدر كبير من الماء لاجل الاستحمام ، فحملت طباخها الى الحمام وتركته متوهجاً التماساً للدفء ، واحضرت صابونها ومنشفتها وحزمة ثيابها النظيفة • مكثت فى الحمام نحو ساعة متلذذة بالبخار الدافىء المنعقد فوق رأسها ولزوجة الرغوة البيضاء الثلجية المنحدرة من أعلى صدرها حتى حضنها وقدميها الصغيرتين • فهى ذات ولع عظيم بنظافة جسدها وتطريته • واخيراً تدثرت بدثارها السميك معممة رأسها بشال صوفى ونشفت جسدها تنشيفاً جيدا وقد غدا دافئاً مفروكا ، وسرعان ما اندست فى فراشها وشرعت تتذكر أيامها الخوالى • أيام كانت صبية ساذجة غريرة تلهو مع اترابها القرويات • كان الموظف الصحى يدير مستوصف القرية ، تذكر عطية مبنى المستوصف الصغير المشيد من الحجر ، يقوم عند بابه فراش من أهل القرية رجل مسكين قليل الراتب يرتدى قباء وسترة ويعتمر بكوفية وعقال وثمة امرأة ممرضة تعالج النساء المريضات وتزرقهن بالابر • كان الموظف يديم اليها النظر ويبتسم وذات يوم لحق بها فى درب صغير فاسرعت الخطى هاربة منه وهى تلتفت وراءها فتجده ممعن فى مطاردتها فهرعت الى السطح ومن هناك قذفته برمانة جافة اصابت رأسه لكم ضحكت عطية • انها ذكرى سارة لا سيما المناورات الصغيرة الصبيانية التى عمدت اليها فى سبيل

أن توقد جذوة الغرام فى قلب الموظف وتتزوجه .

لقد بلغها نبأ زواج ذلك الموظف وان زوجته انجبت له ولدين اثنين وكذلك الحال مع زوجات أخريات يتزوجن وينجبن فى بساطة متناهية .

كانت عطية آنذاك تعيش فى بيت من الحجر الغليظ المقطع من التلال المجاورة . كتل غير مصقولة من الحجر يشد الملاط فيما بينها فتستوى جدران سميكة ثقيلة ترتفع الى سقف مقبب كسقوف السراديب . كان من العادة أن يستجلب الناس بناء ماهراً من المدينة ، يكون طعامه وشرابه ومبيته وتدخينه على نفقة البانى مع أجور باهظة . كان بيت عطية صغيراً ذا غرفتين يفضى الباب الخارجى الى ساحة كبيرة ما تفتأ حافلة بضروب الحبال والحطب وقطع الحديد والخشب وحبوب الشعير والسطول والجرار مربوطة فى جانب منها بقرة صفراء تدر عليهم الحليب ، وفى الليل يقودونها الى سرداب معتم عميق خشية أن يسطو عليها اللصوص . ولديهم عدد كبير من الدجاج السمن الحسن التغذية يتراكض فى الساحة ويقوقىء ويندس فى الغرف . كانت حياة رتيبة غليظة مبسطة وخالية من التعقيد . تتزوج الفتيات فى سن مبكرة ويصبحن أمهات وجدات فى سن مبكرة أيضاً ويعملن مع الرجال فى الحقول . رجال بسطاء من العامة يشكل مجموعهم الشعب الكبير الطيب الكادح طوال العام لتوفير لقمة الخبز وحدها ، ليس بين أيديهم ما يتمتعون به غير الشاى الاسود الساخن وغلايين غليظة يملأونها بتبغ حاد .

كانت المسرات قليلة ولكن الهموم أقل وأخف . ينهمك الناس طوال دورة الارض السنوية فى أعمال الزرع ، فما أن بذروا البذر حتى صاروا يتحدثون عن المطر وما أن هطل المطر حتى غدا الحديث

عن جودة المحصول وما ان انتهى هـــذا حتى تشـــاوروا عن ميعاد الحصاد ، وأخيراً حصدوا ودرسوا وذروا ومضوا الى المدينة يتاجرون ببضاعتهم • ومشكلة الارض كغيرها من المشاكل لا زالت ممتنعة عن الحل ، فقليل جداً يملك الكثير وكثير جدا يملك القليل والاســتغلال والفقر وشح الرزق متوفر كله توفر الهواء ونور الشـــمس • وفى القرية مدرسة ابتدائية واحدة تدرس فيهـــا البنات الى جانب البنين وعادة يترك البنات المدرســـة في وقت مبكر أما عطيـــة فلم تدخل المدرسة قط • وكان الخادم الموكل اليه اعداد وجبة الطعام المجانية الواحدة للطلبـــة يزور عمها فى بعض الاحيـــان ، وهو رجل كهل مضحك يدخن فى غليون طويل ، تزوج من أرملة لم تنجب له طفـلاً • كان يتقاضى ربع دينار فى اليوم الواحد وكلما تعطلت المدرسة حرم من أجرته ولذا كانت انباء العطل تهبط عليـــه هبوط الطاعون فتثير حنقه وثورته الكآبة وقد غدت هذه الثغرة الحساســـة مرتعاً لتنذر الناس وضحكهم • يعمد المعلمون الى توريق التقويم زاعمين انه يوم كذا عطلة ويوم كذا عطلة وسوف تجتاح البلاد موجة من الاعياد البهيجة فتتعطل فيها الدراسة • وكانت عطية على صغرها تســـاهم فى احراج الخادم وارباكه فهى الاخرى تفترض اعياداً مزعومة ، فينهرها عمها فى حزم فتقطع ضحكتها وتلوذ بالصمت •

فى نحو الساعة العاشرة عاد سليم خابطاً الارض عند الباب خبطاً قوياً جعل عطية تستفيق • رفعت رأسها عن الوسادة واحاطته بنظرة هادئة ، فبدا لها سليم فى العتمة جميلاً بعض الشيء وأنيقاً فى ملابسه النظيفة •

سـألت ـ هل عدت ؟

أجاب فى بداهة ـ ألا ترينني ؟

استوت قاعدة على السرير يلوح على عينيها النعاس ، وشعرها مضطرب ، سألت مستوضحة ولا تكاد تجد سبباً يبرر ابتسامتها .

- كيت أمضيت الوقت ؟

وشرع سليم يلخص لها احداث المساء قال : جلسنا فى احدى المقاهى ثم اصطحبني الى بيته أو بالاحرى غرفتــه فالرجل يقيم فى غرفة كبيرة أكبر من غرفتنا هذه ومؤثثة بأحسن من أثاثها . لديه راديو كبير واسطوانات كثيرة للغناء والموسيقى وصور فنية مؤطرة ومكتبة عامرة بالكتب وعلى الارض سجادة ثمينة . يبدو انه يحيا حياة ميسورة وينفق عن سعة ويعيش وحده من غير عائلة ، وليس هذا بعجيب فهو يربح كثيراً ، وقد سقانى كأساً من البراندى لم أتذوق شراباً فى مثل لذته كل حياتى - سألت - هل هو يعمل فى المستشفى ؟

- نعم فى المستشفى معاون طبيب او موظف صحى كما يسمونه .

فغـزت ذهنهـا فى الحال ذكـرى الموظف الصـحى ذى العينين الزرقاوين الذى خطب ودها ذات يوم .

وتابع سليم - اننى حدثته عن مشاجراتنا فى البيت بسبب الحمل فضحك كثيراً ، ثم ابتسم ورفع أصبعاً مهددة .

ولقد شكوتك اليه - ففزعت عطية وسألت - كيف ؟

- قلت عنك انك كئيبة باردة مهمومة .

- لانسان غريب !

- لا تقولى انه غريب ، أضحى صديقى ... وكما تعلمين اننى لا أبعثر صداقتى جزافاً . وأمل أن يدلنى الى طبيب اخصائى فيعالجنى من جديد .

ابتسمت عطية فى ارتياح . كان عطر الصابون يفوح من ثيابها ، وبدا شعرها الكستنائي شديد التموج يسطع بلمعان الغازلين ، وكان

كيانها كله متحفزاً رائعاً يغري بالاحتضان ، فأخذ سـليم العجب من مشهدها الليلى الذى يشبه الى حد كبير صورة اسـطورية لسيدة من الاميرات مستلقية فى سريرها الوثير .

همس فيما هو يدنو اليها :

ـ اطمأني يا عطية سنفتح عهداً جديداً ولن أقسو عليك بعد اليوم .

كانت ليلة هادئة ترشح مودة ورحمة فقد غدا أحدهما محبوباً الى الآخر الى الدرجـة القصوى حبـاً متبادلاً عميقا لم يجريانه فى أيامهما السالفة .

عشرة أيام تقضت حين وقع الحادث التالى :

فى الساعة الثانية بعد الظهر التقت عطية بجميل . أمعنت فيـه النظر وابتسمت له .

كان الخريف يجرجر آخر أذياله وقد تقلص النهار وخمـد لهيب الشمس وانتشرت على الارض بقع الرطوبة رمادية مخضرة . كانت عطية ترتدى فستانا من الكتان مخططاً غامق اللون تتلاقى بعض خطوطه عند الصدر التقاء حاداً متجهة أطرافها الى العالى بينما خطوط التنورة متجهة الى الارض . وكعادتها قد تلفعت بعباءة جـديدة ليست تلك التى تخرج فيها الى مسواقها الصباحى ، كما انتعلت حذاء أنيقـاً مرتفع العقبين من جلد أسود لماع وتزينت بمعاصمها وقلادتها وساعتها المذهبة واطرت وجهها بالدهان ورشته بمسحوق خفيف وردى اللون.

كانت فى سبيلها الى السوق لابتياع قماشـاً .

وكرة أخرى نفذت كلماته الى أذنيها بصوته الخافت الجرس الوديع الى حد العذوبة فتسمرت عطية تجاهه رافعة اليه عينيها النديتين المداعبتين . قالت معاتبة وقد احمر وجهها لغيرما سبب .

ـ انك لم تزرنا غير مرة واحـدة .

فأجابها فى أسف غير محول نظراته عن وجهها :

ـ اننى أعمل طوال النهار منذ الثامنة حتى الثانية فى المستشفى وفى المساء أعمل فى عيادة طبيب حتى هبوط الليل •

وتريث لحظة ثم سألها ـ وانت ما الذى تشترينه ؟ أجابت :

ـ كنت أبحث عن قطعة من الفايبر لعمل ياقة لفستانى الجديد ، غير اننى لم أجد اللون المناسب وها اننى عائدة الى البيت •

فأومأ جميل الى الجهة التى تعتزم عطية اتخاذها •

ـ من هنا •

ومشى الاثنان متباعدين قليلاً تضرب أحيانا أطراف عباءتها سترته وسرواله وتلمس كفه المتأرجح فيحس بنعومة الحرير الاسود البارد مثيراً فى نفسه لذة غامضة ، هى لذة الرجل الذى يوفق الى امرأة تقع فى نفسه موقعاً حسناً • تأملها بزاوية عينيه تحت نور الشمس الساطع فى أرجاء الطريق • شابة فى ريعان الشباب عاجية كدمية من الخزف• تحمل حقيبة من الجلد الاسود ذات عروة عريضة ، ليس من انسان على ظهر الارض يتصور أن يكون زوجها ذلك المترهل البدين الكث الشاربين الفاقد اللياقة •

قال جميل فى انشراح ـ كل يوم اقطع هذا الدرب فى مثل هذه الساعة •

فلم تعقب عطية على هذا الايضاح •

كانت السيارات تربك سيرهما الموزون فتبعده عنها تارة وتدنيه أخرى وما تفتأ الابواق تصرخ من ورائهما فيصعدان الى الرصيف وينزلان عنه والحديث بينهما خافتاً عادياً فى غالب الاحيان • واقتربا من الزقاق الذى يقود الى منزلها فاستأذنته عطية وانصرفت فى تعجل ملحوظ • وفى البيت اخلدت الى تأملاتها ـ تتساءل ـ علام يدعوها

لتلتمسه فى مثل هذا الوقت • انه صديق زوجها وهى لا تحبه على أية حال •

وحين وضع سليم قدمه فى الباب عند المساء أعلنت له عطيـــة النبأ قالت :

ـ لقيت جميل فى السوق •

فارتفع حاجباه فى دهش طفيف لا يحمل أياً من معانى الانزعاج فتشجعت وعادت تقول :

ـ يقول مشاغلى كثيرة ومعظم الاحيان أمكث فى البيت •

قال سليم بعزم – ســألقاه الليلة فى بيته •

وصار يأخذ أهبته للخروج ، حلق واغتســل وتمشــط وارتدى قميصاً غير مكوى معاوداً لبس سترته وسرواله المزيتين وعند المجاز ابتسم لهــا وقال :

ـ قد يصطحبنى الى الطبيب فأبدأ بالعلاج • لست كثير التفاؤل ولكننى أمل •

فأجابت عطية بنبرة متضرعة ـ عسى الله يفرج غمتنا •

وحال أن غيبة الباب شرعت عطية تفكر • كان جميل هو المغزل الذى تلف عليه خيوط افكارها • راحت تحلل هــذا الرجل الغريب الذى انبثق فى حياتها وحياة زوجها ، انها تحس بالســرور لا لســبب سوى انها تعرفت اليه كما ان سليم صار يلاطفها ويحدثهــا فى رقة ولا يعمد قط الى تعكير صفوها ، فكأنه ســليم آخر تلاشى فى شــخصه الســليم القديم النكد الخلق المتبرم المتضايق فى اطار حياته الرتيب الخائب •

كانت فكرة الحب لم تتجسد بعد الى كلمات فى ضمير المرأة المتحضرة منذ وقت يسير ، بل انها لم تجرب هذا الوهم الكبير الذى

يتغنى به الناس فى كل مكان ولكنها استشعرت فى أويقات من النهار والليل انها تفكر فى الرجل • كأن تستعيد كلماته التى اسمعها اياها ، او تحفظ فى ذاكرتها لون ربطته ، أو تعمد الى استذكار شكل أنفه وشفتيه وتسريحة شعره • ان ذهنها فى الجملة ليس خاليا كما كان فى أيامها الغابرة •

عندما بلغت الساعة الثامنة والنصف تصادت فى المجاز خطوات سليم الثقيلة مؤذنة بقدومه فخفق قلب عطية وسرى فى قسماتها ظل ابتسامة لطيفة سألته :

ـ هل لقيت جميل ؟

أجاب فى لا مبالاة :

ـ نعم كنا فى البيت وخرجنا الى الطبيب ففحصنى والقى بعض الاسألة عن عمرى وعملى وقد سألنى متى تزوجت واسئلة أخرى كثيرة واتفقنا أن نبدأ العلاج منذ الغد •

سألت عطية وقد لاحظت ترنح زوجها •

ـ هذا كل شىء ألم تذهبان الى مكان آخر ؟

ـ نعم اصطحبنى الى الحانة وسقانى كأسين كبيرين من العرق واننى سكران بعض الشىء •

فلم يزعجها سكره • وبعد دقائق تقدم نحو السرير واضطجع الى جوارها محدثاً هضبة عالية تحت اللحاف • قال ـ يبدو لى ان الطبيب حاذقاً وعلى دراية بدقائق علتى ولكنه لم يؤكد لى اننى ساشفى وانجب أطفالاً وهذا خير من الوعود الباطلة •

ثم لم يلبث أن احتواه نوم عميق استسلم له بكامل جوارحه ، غير ان عطية عانت الارق حتى منتصف الليل • كان يخيل اليها ان سليماً ليس هانئاً فى نومه فهو يتقلب من جانب الى جانب وتعتريه شحطات

في البلعوم أشبه بانسان يكاد يختنق ، وكان فؤادها ينخلع في كل مرة حاسبة ان زوجها قد دنت نهايته . كانت تأملاتها كلها غير مجدية ، فالامر كله لا يعدو أن يكون زوج عقيم يحاول محاولة يائسة لاسترداد رجولته وصديق طيب مخلص لا يسع الانسان الا أن يحبه . ولكن هذا السؤال ظل عالقاً في ذهنها علام هذا الايضاح ، في كل يوم في مثل هذه الساعة وهذا المكان .

مضى اسبوع لم يشجر بينهما أي خلاف . في الصباح تخرج عطية الى السوق تبتاع اللحم والخضار وتعتكف في غرفتها ساعة أو ساعتين لاعداد طبخة الغذاء وتخليل السلاطة متشاغلة بالنقش ورتق الجواريب والقمصان عند النافذة . فينصرف ذهنها الى سليم وجميل اللذين يحبانها ويحترمانها ويشتهيان طعامها . وكلما تبلغ الساعة الثانية تقول في ذات نفسها ان جميل يغادر المستشفى اللحظة وانه بعد دقائق يصل السوق في طريقه الى بيته . في المساء يشخص سليم الى عيادة الطبيب فيزرقه بأبرة ويعود الى المنزل فيرتدي جلبابه ويجلس الى العشاء فتخدمه عطية بالماء وتريح كوعه بالوسائد ، ثم يتمدد فوق القنفة يطالع بأحد الكتب أو يتصحف في الجريدة . كان لديه خمسة كتب قديمة تتناول حياة الانبياء وانجيل العهد القديم وديوان شعر وكتاب في الحياة الزوجية وآخر يبحث في النفط والاقتصاد العراقي . ويبدو أن سليماً قد وجد ضالته الثقافية في كتبه الخمس فهي دين وأدب واجتماع واقتصاد . في كل مرة يتناول أحدها حسبما يمليه عليه مزاجه الآني ، فيطالع عدة صفحات لا تتجاوز في أبلغ شوط عن سبع صحائف ، وسرعان ما يعقد النوم جفنيه فيسعى الى السرير وهو يتابع شهقاته العميقة حتى يلقى نفسه في آخر الامر مستلقياً جوار عطية .

دعت الحاجة عطية للخروج الى السوق لشراء أزرار وشرائط فاعتزمت فى بادىء الامر ان تخرج ظهراً غير أن هذا الوقت لم يرق لها فجعلته فى الساعة الثانية ، سيكون السوق فى هذه الساعة أقل ازدحاماً وربما تلقى جميل عائداً من المستشفى . فكرت عطية – واى ضير ان تلقاه انه صديق زوجها الحميم وقد كسب ثقته ويعمل لمصلحته ومصلحتها وفوق كل ذلك فهو انسان ترتاح له النفس ، وقد ساورها هذا الاحساس اللذيذ مساورة خادعة رقيقة كالذى يحسه المرء حين يقف على رصيف المحطة ينتظر أوبة صديق عزيز . أما فى السوق فقد سلكت عطية الدرب نفسه الذى سلكته فى المرة الاولى فتباطأت لدى بائع الشرائط ريثما تنتقى اللون المناسب بينما عينها الواحدة تنحرف انحرافاً موصولاً الى السابلة القلائل المجتازين بالسوق فى الساعات الاولى من المساء ، وفجأة انبعث الرجل الذى تنتظر فدفعت ثمن الشرائط واستدارت . كان جميل يرتدى هذه المرة بدلة شتائية غامقة محكمة التفصيل ، وفى عنقه ربطة حمراء ثمينة وتبدو لحيته نامية بعض الشيء . تطلعت عطية فى عينيه . كانتا نيرتين ببريق هادىء رقيق مؤانس قالت وهى تتجالد كتم انفعالها :

– مرة أخرى ألقاك فى السوق .

أجاب مؤكداً :

– كل يوم فى مثل هذا الوقت .

وتابعت عطية تقول – كنت ابتاع اشرطة وازرارا ها هى ذى – فجرت أصابعها العاجية الرقيقة فوق قفل الحقيبة مخرجة اشرطتها وازرارها ، سألت « هل هى جميلة ؟ » .

– جميلة جداً ، أجاب جميل :

– اذن أنا أحسن اختيار ملابسى .

سـألها : كيف هو حال سليم ؟

– بخير •

– أتعيشان بسلام ؟

– أجل بسلام وبفضلك •

– « بفضلى أنا » ؟ تساءل بدهشة •

وبموجة من الكلام المتواتر الموصول شرحت عطية ماضيها الصعب مع زوجها قالت :

منذ أن تعرف اليك سليم ، حسنت حياتنا وصار يلاطفنى كثيراً• انك على ما أعلم قد عملت كثيراً فى هذا السبيل فشكراً لك •

سألها فى اهتمام : وقبلاً كيف كنتما تعيشان ؟

تنهدت عطية وقالت : لم نذق طعم السلام ، غالباً ما نتخاصم ، وكانت حياتنا شقية الى حد كبير ، رغم ان أحدنا لم يكره الآخر فى يوم من الايام •

ودار الحديث حول العلاج فعقبت عطية فى جرس يغلب عليه الخجل والتردد •

– ترى هل سيشفيه العلاج ؟ •

فاستدار نحوها وحدق فى عينيها فأصابها تيار كاسح من دفىء عينيه المعبرتين ، فاستشعرت عطية ان جارحة ما قد اختلجت فى صدرها ، قال فى مداعبة :

– اصبري قليلاً •

فردت عطية فى استسلام وخضوع « اننى صابرة » •

وشرع جميل يتحدث عن أهمية الاولاد وما يجر العقم على العائلة المحرمة من أذى وضيق وخلص الى القول انكما من غير ريب تحسان الضجر حتى من نفسيكما ، لا سيما وانكما تحييان فى بيئة

متأخرة فاقدة للمسليات وضروب اللهو والهوايات .

واذ بلغا الزقاق وقفا صامتين يوشحهما شيء من الارتباك . فقد بدا لجميل انه تجاوز بأكثر مما ينبغي في الاندساس الى اسرار صديقه الزوجية ، وهو تطفل لا يستراح له في الظروف العادية ، كما أن طاقة عطية لاستيعاب فيض مشاعره كانت مخيبة الى حدما ، فهي أشبه بامرىء ود أن يتذوق شيئاً من الحلوى فاذا هو يلقم بكتلة كبيرة كادت تؤدي الى اختناقه .

وأخيراً انصرف جميل انصرافاً مؤدباً رقيقاً ، فجرت عطية وحدها في الزقاق المعتم الضيق مطلقة لافكارها العنان .

لقيت عطية قبل جميل رجالا كثراً وحملت للبعض منهم مودة خالصة ولم تحرم من ساعات هانئة تتجاذب فيها الحديث مع رجل من جيرانها أو انسبائها . فحياتها (الغرفية) كانت تستدعي هذا الاختلاط البريء ، فرغم انها سكنت داراً واحدة خلال اقامتها في بغداد ، الا أن هذه الدار ما فتأت تتلقف اناساً وتودع اناساً ، لان مؤجري الغرف ليسوا كمؤجري الدور ، فهم يقيمون اقامات أقصر ولا يبرمون عقداً مع المالك . نقول ان عشرات الرجال قد مروا بحياة عطية مروراً كريماً ، فمضوا واختفوا وطمرهم النسيان ولم يخلفوا لعطية أيما ذكرى ذات بال ، حتى أن صادفت أحدهم على الطريق حيته في فتور وايجاز دون أن تغفل تحميله التحيات الى أهل بيته من النساء وتلك طريقة واضحة المقاصد ، هي علاقة نساء بنساء . ان قلبها لم يقع قط في قبضة أحد ولم يعكر ذهنها تفكر أو تأمل بانسان من الناس ، وكلما حللت مشاعرها مع سليم تجد ان زوجها الذي لم يكن في يوم من الايام شديد الحب الى قلبها ، قد دفعتها المصادفات البحتة الى زمالته ، وهي زمالة عرضية مفروضة من خارج ارادتها ، ولم تشأ

أن تفسد هذه الزمالة او تعمل على انهائها لانطباعها على الاستكانة وتقبل المقدور ، أما جميل فقد طفق منذ اليوم يدغدغ عواطفها ، وهو فوز ملحوظ سقط سليم بعيداً عن احزاره ٠

شهر آخر قد مضى فلم تبق الخريف أية باقية ، ابترد الهواء وشرعت السماء تسح أمطارا غزيرة تغرق بها الازقة الخفيضة المشبعة رطوبة وعفناً فتحدث هنا وهناك بحيرات خضراء اللون يتحامونها الناس خشية الزلق والبلل ٠ معظم ساعات النهار يتوهج الطباخ فى غرفة عطية ، تطهى به طعامهـــا وتسخن شايها وتجفف الالبسة الندية ٠ وقد دعا سليم صديقه جميل غير مرة الى منزله لتناول الغذاء فكان يقتصد فى حديثه مع عطيـــــة ولا يخوض معها حديثاً مباشراً لئلا يزعج سليم ويخسر بعض ثقتـــه وذات يوم خاطبها مازحاً « ستكونين مدينة لنا بوليمة كبرى ان حملت بطفل » فتقبلت عطية هذا التعريض بارتياح بالغ واردفت متسائلة فى شيء من الخجل ـ أتظن ان ذلك سيكون ممكناً ؟ فأكد لهـــا جميل بعزم ـ ممكناً انتظرى بعض الوقت ـ فنكست رأسها تاركة صدرهـا الصغير يعلو ويهبط فى تلاحق ٠

اذن انتهكت الحجب التى تعزل الرجـــل الغريب عن المرأة الغريبة ورفعت الستارة الفاصلة ، ولم يعد ما يمنع جميل أن يسألها فى اهتمام وحنان ان كانت قد شـــعرت بعوارض الحمل فتجيب بالنفى وذات يوم قبلهـــا ٠

حدث ذلك فى احدى الحدائق العامة المترامية الاطراف المظللة بأشجار الكالبتوس والكازورين ٠ فقد انطلقت عطية لزيارة بيت من أصدقائها فى منطقة السعدون وابلغت جميل عن طريق عرضى انهـــا ستلتمس النزهة فى الحديقة بعد الفراغ من زيارتها تحرراً من جو المدينـــة الخـــانق المقبض ٠ وبكر جميل فى الحضور ذارعاً ممرات

الحديقة جيئة وذهوباً مرسلا نظراته الى كافة الارجاء حتى هلت عليه من بعيد مشرقة فاتنة تخب بعباءتها السوداء ، فتظاهرت بالدهشة لدن أن وقعت عليه عيناها وكأنها تلتقيه صدفة فبادرته محيية :

ـ انت أيضا تتنزه فى هذا المكان •

قال جميل فى ذات نفسه ـ ليست مغفلة ، انها تعرف ما تقول ـ وطفقا يتساران فى المواطن الاكثر انعزالاً من جوانب الحديقة حتى مغيب الشمس • كانت وجلة حذرة لا تفتأ عن معاينة الناس خشية أن يتعرف عليها أحد ، وخيمت الظلمة وانتشرت همهمات الحشرات وتصاعد نقيق الضفادع وغدا المكان مقفراً تماماً الا من بستانى واحد كان يقف على مبعدة ينتظر انصرافهما ، واذ ما بلغا الباب امسك بها جميل من معصمها وضغط عليه فاستدارت نحوه ورمقته بنظرة متحسرة شهية ، فانحسرت عباءتها عن رأسها وكادت تبلغ نقطة الانحدار ، كاشفة عن شعرها المضمخ بالطيب والمشبع بالدهان والمفروق على جانب • لم تقع عيناه عليها وهى فى مثل هذا البهاء العظيم ، طوقها بذراعه وقبلها فى شفتيها قبلة حارة ، فأتت عطية بحركة واهنة واجفلت قالت منكسة الرأس ـ أخشى أن تتمادى فى غرامنا وينكشف الامر • واعلم ان سليم ليس بالرجل السهل المتسامح ، فان ثورة مدمرة قمينة أن تنشب آنذاك ـ

فهتف جميل باشتياق ـ « ولكننى أحبك يا عزيزتى وأرانى عاجز عن امتلاك اعصابى » •

فتابعت تقول وهى منكسة الرأس ما زالت وقد تلاشت البسمة من محياها ولاح عليها التأمل والذهول •

ـ اننى أعرض نفسى للخطر من جرائك ، وربما أعمل على تهديم سعادتى ان كانت لي ثمة سعادة ، وأثير أقاويل الناس ولكننى مع

ذلك ليس أدري كيف أمنع نفسي من لقائك ، انني انتظر خروجك من المستشفى وأفكر فيك •

قالت ذلك بصوت ملتاع متحير لا أثر فيه للموارية والخداع مما حدا بجميل أن يآسي للمرأة التي وجدت في الحب محنة أكثر مما وجدت من متعة ومسرة ، انها لجديرة بالرثاء والعطف •

وتركت جميل ذلك المساء هاربة متعللة بالصداع وهي مروعة من الجرأة التي اصطنعتها في تقبيلها وهو اول رجل غير زوجها يدني شفتيه الى شفتيها ، وأقبل سليم في أول الليـل فنزع ملابسـه وطفق يتحدث عن موضوع علاجه بلهجته الجافية النكراء ، ولم يسـع عطية الا أن تعترف هي الاخرى بفشل العلاج فالطمث يعاودها كل شـهر في مواعيده وهو ايذان بالخيبة والبوار • كان معنى الضيق واليـأس جليا في شـكواه •

ـ منـذ شـهرين وانا أزرق نفسي بالابر ولا اجـد أية بادرة للشفاء وانني اقتطع جزءاً من أجوري واضعها فييدى الصيدلىوالطبيب ، ولست أدرى ما الذى اقوله في موضوع جميل ، ربما انه يدرى انني في سبيل محاولة يائسة غير انه لم يكترث للامر لسبب ما في نفسه ، وعلى أية حال أفكر ان اصفي صداقتي معـه على نحو تدريجي ، ذلك أفضل لي •

واسـتحال على عطيـة أن تعزو سبب شكواه هـذا الليل بالذات وبدأ لها وكأنه عالم بما حدث لها في المساء ولسبب ما لا يريد اتهامها كان ينتظر احداثا أعظم ، فينزل بها ضربته القاضية • واستشعرت بعمق متزايد ان زوجها يكاد في كل لحظة يمسك بها من كتفيها ويرطمها بالجدار ويتناول عنقها فيحزه بالسكين حزاً جزئياً ويلقي بها على الارض تتخبط بالدم كالدجاجة التي يذبحها اليهـود ، فاسـتبد بهـا القـلق

والاضطراب لعدة أيام • فى المساء تحسب انه يرجىء اتهامه الخطير الى الصباح ، وفى الصباح تأمل أن يحدث ذلك فى المساء • ولم تعد تسعى للقاء جميل خوفا من افتضاح حبها •

وفى محيط العائلة وقع حادث آخر هو تضخم بطن صفية بابنها الرابع ، فهى فى هذه الايام تتهادى ببطنها الكبير وقد سأمت الولادات المتعاقبة • وجريا على عادتها انهمكت فى الشهر الاخير الذى يسبق الوضع باعداد البسة المولود المنتظر واشيائه • فأوصت مهدا خشبيا صغيرا يصنع فى الموصل يهتز على قاعدتين جانبيتين مقوستين وضعته الى جانب سريرها • كانت مثلها دوما ، سعيدة يفيض محياها بالبشر والرضا تحب زوجها وتدلله حتى تجعل داود النزاع الى الدعة والسكينة أشبه ببقرة متخمة بالبرسيم مستلقية على العشب تستدفىء بشمس الربيع •

غير ان جميل الذى يجرب الحب لاول مرة وجد فى عطية انسانة مهزومة خائبة لينة الجانب مطبوعة على البساطة والطيبة الا انه لم يكن من اتقان الصنعة ما يجعله يفيد كثيرا من هذا الحب ، وليس من باب المبالغة ان شعر نحوها بحب متنام بعد ان انقطعت عن لقائه زهاء اسبوعين ، فاعتزم أن يلتمسها بأى سبب ويكاشفها بحبه ولوعته بأكثر مما فعل فى الحديقة ويعرض عليها ان شاءت ان تتزوجه فتضع حدا لآلامها المتأتية عن زواجها البائر من رجل عقيم • وكان اللقاء الاخير محض مصادفة وقعت فى عرض الطريق •

كان ذلك فى الاسبوع الاخير من شهر كانون الثانى وقد عصفت فى المدينة موجة عاتية من البرد حتى ان الناس ليلتمسون الدفء من المواقد فى رابعة النهار • التقت عطية بالوجه الشاحب المهزول ذى العينين النفاذتين المعبرتين فأجفلت وهمت ان تنكص على عقبيها فتسمر جميل تجاهها يخرج كلماته الرقيقة اللائمة - اين كنت كل هذا

الوقت الطويل ••• أقلقت بالي •

واتى بحركة أفهمت عطية انه يعتزم السير الى جانبها فعرجت الى زقاق جانبى حيث كانت ريح رطبة مثلوجة تهب فى رفق ، جعلت عطيـة تحكم عباءتهـا تحت حنكها قالت شـاكية ـ ان اليـأس صار يتسرب الى قلب سليم وفقد صبره وغدا الطفل شغلنا الشاغل واننا نعانى كثيرا بسبب هذه المحنة • انك هديته الى طبيب غير كفء كان همه الكسب ليس الا •

ـ كذلك كان واجبى ـ قال جميل فى اعتذار ـ أما ما خسره عند الطبيب فاننى أعيده اليك ان شئت انما المهـم ان تطرحى عنـك الهموم وتفرحى •

فرمقته بنظرة من يسأل « ترى ما وراء هذا » ـ فتابع جميل ـ ليس لك ان تستغربى ـ

فتأوهت عطية ـ هل تجد شفاءه مستحيلا ؟

فرمقها جميل بمؤخر عينه ولم يحر جوابا على سؤالها فعادت تتساءل كرة أخرى ـ اجب قل ما الذى يدعوك الى كتم الحقيقة •

فغمغم جميل ـ ليس ثمة ما يدعونى الى كتم الحقيقـة فقد أعلمنى الطبيب ان شفاءه مستحيل ولا يحتمل ان تنجبى منه طفلا ، ولست أدرى كيف تم زواجك به ، ربما اهلك لم يكونوا حذرين كفـاية •

تنهدت عطية ـ اننى غير موفقة ••• قسمتى كانت كذلك •

فسألها جميل فى لطف بين محاولا ان يغور أكثر من ذى قبـل فى ماضيها •

ـ ألم يخطبك رجل سواه ؟

فبرز فى اطار فى ذاكرتها الموظف الصحى الذى غازلها علانية ، وكان جميلا رائع الوجه جذابا الى حد كبير ، وشابا فى ريعان عمره

لو انها تزوجته لانجبت ثلاثة أولاد وعاشت فى كنف موظف مهندم رقيق الحاشية يقدرها حق قدرها . تأوهت فى ألم .

- نعم كان يعمل مثل وظيفتك موظف صحى فى قريتنا ، أحبنى حب عبادة وأوشكت ان تقع الخطبة لولا ان شجر خلاف بينه وبين عمى .

هتف جميل فى انشراح - « عطية لقد قدر لك أن تكونى محبوبة من موظفين صحيين اثنين فانا كذلك احبك » لم تجد عطية ما يسعفها على المكابرة والاعتراض ، لقد أفصح الرجل الغريب عن حبه لهـــا وتقبلت هذا الافصاح صاغرة مستكينة .

وواصلا سيرهما حيث قادها جميل الى مكان بيتـه فسألت فى دهشـــة .

- « اين تقود هذه الطريق ؟ »

فأجاب فى خجل - « لنستريح قليلا فى بيتنا اننا غدونا جـــد قريبين منه » -

فاستفاقت عطية من انسراحها غير المتحفظ فى تيه الازقة الغريبة عليها قالت معترضة

- « ما الذى اصنعه فى بيتك الافضل ان أعود - »

أصر جميل فى توسل - « عطية اننى أرجوك ، أريدك معى » .

اعتور عطية لحظة من لحظات الضعف الانسانى . اللحظات التى تدفع الانسان الى حافة الخطيئة وهو مفتوح العينين وفى تمام ادراكه . فكرت عطية انها قد تحمل من هذا الرجل الذى لم يعـد غريبا على قلبها ، قد تحمل وتتظاهر لسليم وللناس أجمعين انها زوجة ســوية وزوجها رجل سوى فتسدل ستارة صفيقة على مآسى الماضى وآلامه وتصلح حياتها وتفرح سليم وتنعش آماله وتزهو على جاراتها ومعارفها اللامزات الغامزات . ان خيرا عميما سيعقب هذا الحمل المنتظر .

قال جميل مشجعا - « أقسم بشرفى انها ستكون جلسة أخوية بريئة ... اطمأنى »

سألت عطية فى ذهول - أين هو بيتك ؟

- ها هنا عشرون خطوة أخرى .

فبلغت بابا أنيقا مركب فى جدار آجرى عظيم يؤذن عن فخامة الدار التى اتجه نحوها جميل .

قال - « لحظة واحدة افتح لك وأدعوك »

وجرى مسرعا ففتح الباب بمفتاحه الخاص الذى يحتفظ به فى جيب سرواله واختفى لحظة ، ومع اختفائه اختفى السحر الذى اصطنعه فى سوق عطية الى بيته .

انها فى مكان بعيد وبرفقة رجل لا زوجها ولا أخوها . رجل عابر لا تكبده الخطيئة عود ثقاب ، انها لحظة أخرى من لحظات اليأس الانسانى ، لحظة استيقاظ وتأمل لدى المرأة المتحسسة أن بدا ما توشك أن تمسها . أن فؤادها ليعجز عن تحمل وزر الاثم ، فأولت ظهرها الى الباب المفتوح ، واسرعت الخطى ولم يزايلها اضطرابها حتى بلغت الازقة المألوفة لديها ، فتنهدت بارتياح وكأنها قطعت مفازة موحشة كان يكمن فيها أعظم الخطر ، ألا ان هذه الدراما الصغيرة لم تتم ، فثمة فصل أخير ينتظر عطية المروعة البائسة الضائعة فى المتاهات .

واذ بلغت الشارع العريض الذى تخترقه السيارات ويستطرقه جمهور المارة وجدت جميل الى جانبها مرة أخرى ، مبهور الأنفاس من فرط التعب سـألها مدهوشـاً .

- عطية لِمَ عُدتِ ؟

لم تلتفت نحوه انما غذت السير فى سرعة ملحوظة فعاود سؤاله فى نبرة رقيقة ضافياً على اضطرابها شـيئاً من الامن .

ـ عطية لِمَ عدت أنا معك وانت تخافين !

ـ هتفت عطية متضرعة ـ أتركنى لوحدى دعنى رجاءً •• اننى خائفـــة •

كانا يمشـيان فى سـرعة ووجهاهما قاتمان مربدان لا ينبئان عن شىء من الصفاء وهذا ما حدا بالسابلة الى التحديق بهما ، فأخذ عطية مزيداً من الاضطراب كما شعر جميل بحـراجة الموقف الناشىء عن ملاحقتها فى عرض الطريق وتحت أنظـــار جمهور المارة المتطفل ، فاصطنع اللطف لازالة الكدر العظيم الذى أصابها ، همس لاهثاً •

ـ عطية اننى أحبكِ لا تهربى منى ••• ارجوكِ •

أوقف عربة ودعا عطية أن تركب معه فمانعت فى قوة وواصلت سيرها ، وعند المنعطف الذى يصل الى منزلها لقيت سـليم يقف فى انتظارها • كان قد عاد مبكراً يعتزم الاستحمام والايواء الى الفراش ولكنه لقى الغرفة مقفلة وقد أخذت عطية المفتاح معها فساوره القلق والاستياء من غيابها ، فخرج الى الشارع يتأمل فى المارة وبغتة مادت به الارض واظلمت عيناه • كانت عطية أمامه مع جميل وهما منهمكان فى نقاش حاد • كان يمكن أن يكون لقاؤهما غير ذى بال ولا مثيراً لايما ريبة فى نفس سليم ، ولكن محياهما المضطربين والطريقة التى كان يخاطب بها جميل زوجته ،والانطباعة القاتمة المرتسمة على وجهها والجو الغرامى العكر الذى احاطهما بسبب من اختلافهما على مسألة من المسائل ، كل ذلك يؤذن ان الزوجـة والصـديق عـلى عـلاقة متينة راسـخة الجذور •

بهت جميل هنيهةليس غير ثم تمالك أعصابه قائلافى مخادعةوارتباك•

ـ تفضلى ها هو زوجك •

وراغ مراوغة ثعلبية قبل أن يلاقى سـليم وجهاً لوجه ، متوارياً

فى جمهور المارة المضطرب على الرصيف ، أما سليم فصب نار نظراته المحرقة على محيا عطية الذي اكتسى بلون شاحب يحاكى وجوه الموتى فطلب اليها بجفاء وتوعد أن تناوله المفتاح ، فدفعت المفتاح الى يده ملجومة اللسان مقتولة بالرهبة .

مشت خلفه مطأطأة الرأس متجمدة مذهولة تصطرع فى رأسها شتى الفكرات ، فارتقت السلم متبعة خطوات سليم حتى تسمر وسط الغرفة واستدار نحوها سألها فى خشونة وبنبرة استجوابية محققة: عطية اننى اتهمك بالخيانة ومهما موهت وابتدعت الاكاذيب فلن ينجيك من نقمتى أحد ... ما الذى كنت تفعلينه مع جميل ؟

وتقدم نحوها معقود الحاجبين صارماً مغيظاً حتى الدرجة القصوى مواصلاً تحقيقه - «هيا قولى ما عندك» .

ثم عمد الى كتفيها فهزهما بقبضتيه المتشنجتين دافعاً أياها حتى السرير فاستلقت عليه مستسلمة مشدوهة .

- اعترفى بخيانتك ما الذى كنت تفعلينه مع جميل ؟ .... كل كل شيء فيك يشهد على جرمك ... هذه المساحيق تلطخ وجهك ، والبنفسج يصبغ شفتيك ، وانت ترتدين أفضل فساتينك . تماماً كأمرأة عائدة من خلوة أثيمة .

وكأنما سليم لم يجرأ على صفعها حتى اللحظة التى بدت فيها تريد الخلاص ، وقد فعلت ذلك بعنف كبير وعلى نحو فجائى فلطمها لطمتين متتاليتين على خديها الصغيرين الشاحبين فنشجت فى حرقة .

- دعنى ، دعنى اننى بريئة لم أفعل شيئاً لقيته على قارعة الطريق ليس غير .

فخلى سليم سبيلها فنهضت فى سرعة واتجهت نحو الصوان قالت فى حزم : «انتهينا لن أمكث دقيقة واحدة» .

فاندفع نحوها محذراً - لن أسمح لك بأخذ شـــىء أتيت بك بفستان واحد وترحلين عنى بفستان واحد ، كل ما فى الصوان هو من عرق جبينى • هيا انصرفى •

نجحت عطية فى اختطاف فستان منزلى واحـــــد كان معلقا على المشجب كما اتزرت بعباتها ومضت هابطة السلم بخطى خفيفـة بينما النزيلات تجمعن فى المجاز يلقين عليها نظرات العطف والاشــــفاق ورجونها ناصحات :

- « عطية لا تنصرفى كونى معنا » لكم تحسرن على مصير صديقتهن المهانة المتحلية بالصبر الجميل •

كانت وجهتها بيت أختها وقد اعتزمت أن تحترف الخدمة فى البيوت • وجدت أختها شأنها فى كل مرة مبتهجة طلقة المحيا تداعب أطفالها وتوزع عليهم الحلوى ، وزوجها داود يبتسم فى رضا وارتياح فأحدث ظهورها فى جو العائلة الهادىء السعيد بعض الدهشة فبادرتها أختهـــا :

- « ما الخبر هل تشاجرتما ؟ » فأجابت عطية فى حزم : « تشاجرنا وانتهينا ، رجل متشكك مرتاب ومريض لا أطيق العيش معه ، سأبيت الليلة هنا وفى الغد أبحث عن بيت أخدم فيه ••• هذا كل شيء » •

- « أنت السبب » اتهمتها صفية فى قوة •

- بل انت السبب تذكرى كيف دبرت زواجى به ••• كنتُ خلية البال مطمأنة فقرعت بابى والقيت الهمّ فى بيتى •

سأل داود فى نفاذ صبر : « ما الذى وقع بينكما اليوم ؟ » •

- ضربنى واهاننى لسبب تافه •

- ما هو ؟

وطفقت عطية تروى الحادث وقد استبد بها الانفعال والتأثر ،

ولا تكف عن مسح عبراتها المنهمرة .

- لديه صديق موظف صحي يعمل في المستشفى دعاه الى بيتنا ذات يوم فأكل وشرب ، وكان فخوراً بصداقته ولايفتأ يطريه ويمتدحه، وكان يقول : انه سيدله على طبيب اخصائي وارشده فعلاً الى أحـــد الاطباء الذي أخذ يزرقه بالابر منذ شهرين ولكن دون جدوى ومساء اليوم لقيني هذا الصديق فيما كنت اتخذ سبيلي الى البيت فلم أجرأ على منعه من مرافقتي في بعض الطريق .

سأل داود في خطورة : هل رآكِ معه ؟

- نعم رآني معه ، وهنـا ثارت ثائرته فضربني واهانني .... ما ذنبي أنا ؟

فاستطرد داود في نبرة لائمـة : كان يجب أن تحترسي ، انكِ تعلمين انه انسان مرتاب كثير الظن .

فزعقت عطية ـ ولكنه صديقه ، ان الناس يثقون باصدقائهم .

- سيان لديه صديق او عدو ، وعليكِ أن تفهمي مزاجـــه ولا تثيرين ســـخطه .

أمضت عطية ليلتها في بيت أختها ، اضطجعت على قنفة بالية في غرفة الاولاد حيث كان أبنا أختها الكبيران ينامان فيها ، فتعلقا بهـــا في أول الليل وغمراها بالقبل طالبين منها أن تقص عليهما حكاية .

كانت مهمومة قلقة ومع ذلك فلم يكن لها من بد من ابتداع حادثة مسلية تلهي بها الطفلين قبل ان يعقد النوم أجفانهما فشرعت تسرد قصة خرافية رسبت في ذهنها منذ الطفولة .

كان في قديم الزمان فتاة قروية جميلة كالبدر تستقي الماء كل صباح ومساء من ينبوع ينحدر من قمة الجبل ، وكان والدها وثنياً طاغية يحتكر الطعام ولا يبيعه للناس حتى يتضاعف سعره عدة مرات ولا

يتصدق على الفقراء ، فظهرت لها العذراء ذات مساء فى مغـارة صغيرة معتمة فأجفلت الفتاة وكادت تصعق من الخوف فطمأنتها العذراء قائلة أيتها الفتاة الصغيرة اطلبى الى أبيك أن يعبد الله ويتصدق على الفقراء فأتت أباها ورجته متضرعة أن يمتثل أوامر العذراء ، غير ان الوالد عجب من أمر أبنتـه وحسبها مجنونة فتوسـلت اليه أن يصدقها فلم يكن من والدها الا ان رفع حجرا واسقطه على رأسها فماتت المسكينة فى الحـال فحزن أهالى القرية لموتها فشيعوها تشييعا حافلا ودفنونها فى ضريح عند المغارة وصار ضريحها فيما بعد مزارا يقصده أهالى القرية يوما واحـدا فى السنة ، وما من عروس تزف الى عريسـها حتى تطـوف بأرجاء الضريح وتلتمس البركة من القديسة الشهيدة .

فتألم الطفلان لمصير الفتاة ورغبا أن يزورا ضريحها فوعدتهما عطية أن تفعل ذلك عندما يحين سفرها الى تلك القـرية وزيارة الضريح تمتمت عطية « قديسة شهيدة ثاوية فى الضريح وزوجة معذبة ثاوية فى الاحزان » وفى الغرفة المجـاورة كان الابن الثـالث يواصل صراخه الثاقب فيما انهمكت صفية تهدهده بترنيمة مفرحة .

كان الابنان الكبيران يناديانها بالخالة عطية ، وهو نداء محبب الى قلبها ، فهى خالة لا تشوبها شائبة وأخت الام . عانقاها كثيراً وتسلقا على كتفيها وطوقاها بأذرع رخصة هشة وقبلاها على عنقها وخديهـا ، واذ ما أثقل النعاس اجفانهما رغب كلاهما أن ينام الى جوارها ، وجرت بينهما بهذا السبب منازعة حادة ، وشرع الصغير يبكى ويرجو خالته أن تسمح له وحده ، فضمته الى صدرها ووعدت الكبير أن يأتى دوره فى الغد .

لم يغمض لها جفن الا لماما . سرحت تأملاتها الى جميل . انها حقا قد احبته ، وهذا مسلك محرم ما كان يجدر بزوجة رضية الخلق أن تنزلق اليه ، وشرعت تحاسب نفسها حسابا منطقيا موزونا . انها قد

التمست لقاءه فى السوق وسمحت أن يرافقها فى بعض الطريق واستجابت لميعاده ، وقد قبلها فى شفتيها كما انها اضطربت من أجله فى بعض الاحيان وتمنت أن يكون زوجها .

أما شخصية جميل المجردة فقد تبدت لها غامضة محوطة بالالغاز اذ انه لم يعمد الى خداعها جهارا ولم يضع وحلا تحت قدميها ، وحتى مسلكه بالامس كان مسلك الرجل الذى يرجو ويتوسل بسبب حبه وخلصت الى استنتاج واحد هو انها قد أحبت جميل ولو لم يكن سليم فى طريقها لاثمر هذا الحب اينع الثمر وجرت الامور جريانا لا تشوبه شائبة . كان يمكن ان يخطبها فترحب بالخطبة أجمل ترحيب وتخرج واياه الى النزهات فى أمن وفخر ، ويتم الزواج فتحمل وتنجب من زوج سوى يافع السن كثير الكسب نظيف الهندام والمظهر .

واستيقظت مبكرة فى الفجر فنفضت عن جفنيها النعاس رادة خصلات شعرها الى الوراء مجيلة عينيها فى أرجاء الغرفة التى أمضت فيها ليلتها . كان الطفلان ما يزالان يغضان فى النوم وقد انكفأ الكبير على بطنه ناشرا ذراعيه على جانبى الوسادة بينا استلقى الصغير الى جوارها تماما متشبثا بها باحدى ذراعيه ، قد انفرجت شفتاه انفراجة يسيرة وكأنه يصفر أو يناديها . لكم ناداها فى الليل الفائت ان اذنيها ما برحتا مليئتين بندااته ـ الخالة عطية ، الخالة عطية ـ

كان مجال الخدمة فى البيوت رحبا كثيرا ، وقد اعتزمت عطية أن تكون مربية أطفال ، لا خادمة تنهض بأعمال الغسل والكنس والطبخ ، وتأتمر بأمر سيدة متغطرسة شامخة الانف ، ومن الافضل لها ان تلتحق بخدمة عائلة كريمة سخية حسنة المكانة ، ولكن قبل أن ينتصف اليوم التالى أقبل سليم ومن غير ما أن ينتظر أيما توضيح انشأ يهرج فى صخب .

ـ أين هى الفاجرة ... جزاؤها الموت .

فأوجعتها كلماته ايما وجع فأنهمرت دموعهـا غـزيرة تهتانه ، فتصدت له صفية بعينيها الثاقبتين ولسانها الذرب الباسل للدفاع عن اختها المهانة .

ـ انت رجل مريض ما كان يجدر بك أن تتزوج بهذا الادراك القليل ومع ذلك تلفق لها التهم وتبتدع الاباطيل .

فهدر سليم وقد ارمضته كلماتها .

ـ انت تحمينها وتزينين لها الخيانة ... تطارد صديقى وتفعل ما يروق لها .

وطالت ملاحاتهما على هذا الغرار دون أن تسهم بها عطية ، فقد أخذت نفسها الحسرات على أيامها الخوالي وحاضرها الضائع المجـرد من الكرامة . انها ما زالت فى سن الصبا والازدهار والتفتح واحتضان الحياة ولكنها لم تنعم بشىء من هذا . ها هو زوجها يكبرها بعشرين عاما أفنى شبابه بالمواخير حتى اصيب بذات رجولته فالقى عليها ظله الثقيل المعتم ، تنهدت عطية ـ لكم اتمنى أن أموت ـ وقد تراى لها ان حقبة من الزمن قد انقضت قبل أن تخمد ثورة سليم وتستحيل الى رماد ، وعمل داود ما فى طاقته ليوفق بين الزوجين المهتاجين ، فاختلى بعطية وصب فى اذنيها عتابه وملامته محذرا اياها من التماس صحبة أى أحد ، وانحى بأشد اللائمة على أخيه الاكبر الذى سمح لظنونه أن تقوده الى اسـوأ سبيل فيتهم عطية المترفعة عن الشبهات بمعاشرة صديقه بالذات الذى استقبله فى بيتـه وأطعمـه على مائدته . وألمح له انها قد تفقـد صبرها فتلقى بنفسها فى النهر فنخسرها جميعا .

وفى المساء أعيد الطائر الجميل التائق للانعتاق الى قفصه الصغير فى الزقاق المعتم الضنين بنور الشمس .

مضى شهر واحد كان حافلا بالكآبة والضيق . لزمت عطيـة

غرفتها كما يلزم السجين محبسه ، فسليم عقيم لا يرجى شفاؤه وليس ثمة أمل من انجاب الاطفال ، ولم يعد يذكر اسم جميل بكلمة ، وبدا سليم كحارس شديد المراس متربص وراء الاسيجة متأهباً كل لحظة أن ينزل ضربته الختامية فيصفى هذه العلاقة السخيفة التى جلبت له كل هذا الاذى ، فهى تستمسى وتستصبح بوجهه الكالح النكد وكأنه يود أن يقول لها انك خائنة وانا اتقيأ من رويتك ولا يفتـأ من الشـــكوى والتذمر من طباع الناس وميلهم الى المكر والخداع وارتداء مسوح الرهبان فيما هم يحيكون المناورات وينغصون سعادات الغير ويصطادون فى الماء العكر «كثيراً ما يقول : أي خير يرجى من بورجوازى تهمه الاناقة والترف بالنسبة لرجل عامل أجير فى عداد الكادحين المسـلوبى الحق المهرقى دمائهم كيما يسمن ويتضرج نفر من الكسالى المتخمين ، ان امثاله خطر على الطبقة العاملة فهو يتطلع الى القصور والابراج ويحلم بالاقامة فى الريفيرا واحتساء الكوكتيل » ولم يخف على ادراك عطية الرجل الذى يعنيه زوجها والمتسبب فى تعكير حياته وتنغيص سـعادته ويعمـد الى توجيه خطابه المباشر اليها بنبرة مستخفة مريرة .

ــ وانت ما أسهل اصطيادك ... هكذا استجابة تامة من غـير قيد وشرط ، كالسمكة فى شباك الصياد ، ما أخزى ما فعلت .

فتتنهد عطية وتلطم ركبتيها منتحية ــ « سليم رفقا بي ثق انني بريئة بريئة لم يمسنى مخلوق بسوء » .

لشد ما صارت توجعها كلماته ، أنها لتخترق شغاف قلبها كالنصال الحامية فثورتها أعظم الألم ، وقد جرّ عليها هذا النـكد المرير الاخـذ بالخناق ضروبا من الاوجاع والاوصاب ، فلا يفتأ ظهرها يوجعها وكأنه يتقصف ، وثمة اضطرابات فى معدتها كما ان ندوبا حمراء شرعت تطلع على عنقها ووجهها وبدت حدقتا عينيها تتسعان فى سيما من الخبل .

وقبل أن ينتصف شباط وضعت صفية ابنها الرابع ، كانت انثى جميلة متعافية •

مساء اليوم أقبل داود الى غرفتهما وقد أشبهت وجار الدب ، وأعلن فى مثل فرحه فى كل مرة ان صفية تلد الليلة ، ودعا عطية ان ترافقه الى بيته كيما تعنى باختها • وأدرك داود بعد دقيقتين ان مرحه ليس فى مكانه ، فقد اخذ أخذاً بالغاً بالجو المقبض الحزين الذى يستحوذ على حياة الزوجين ، فوجم فى مكانه ينتظر فى صمت أن تنهض عطية الى عبائتها ، وقد فعلت حين اذن لها سليم بايمائة من رأسه • وفى الطريق قال داود فى أسف •

ـ انكما تعيشان فى تعاسة بالغة من غير مسرة ولا افراح ، ما أبأس حياتكما •

تنهدت عطية ـ اننا كذلك منذ شهرين •

ولاحظ داود فى شىء من التحذير « ان احدكما قد يصاب بالجنون ذلك ما يفهمه المرء من النظرة الاولى الى محياكما الذاهلين المشبهين الى حد كبير وجوه نزلاء الشماعية » •

لم يكن فى ميسور داود أن يلحظ فى الظلمة وجه عطية المربد القاتم ولا عينيها المغرورقتين بالدموع فبلغت اذنيه آهاتها المتقطعة فأخذه الاسى من أجلها ، أرتاى بعد تأمل •

ـ أفكر أن أهديكما الطفل الذى تضعه صفية الليلة ••• ما رأيك؟

كان انفعالا جارفاً يحتدم فى صدرها فنشجت فى صوت مكظوم•

ـ لا نريد طفلا دعونا نشرب المرارة كلها •

فأكد داود بعزم ـ « الوليد الجديد سيكون لكما لا تعارضان وتكابران »

وفى البيت لقيت اختها مستلقية على السرير تعانى الكرب العظيم الذى يسبق المخاض ، تتأوه تأوهاً موصولا والعرق البارد يتفصد من وجهها الذى غدا لونه قرمزيا ناضحا بالتضرج • كانت القابلة متكورة

عند قدميها • وهى شابة مليحة الوجه تلقت علمها فى مدرسة القابلات ما تفتأ تمسد بطن صفية وترجوها فى رفق وحنان أن تحتمل آلامهـا وتتشجع ، وبين آونة وأخرى تجرعها رشفة من الكونياك الممزوج بعصير البرتقال •

تأملت عطية عن كثب الحيـاة الطبيعية التى تحيـاها أختها وأخ الرجل الذى خلفتـه وراءها فى البيت ، ان المـرء لن يتمنى أن يحظى بحياة أكثر منها سعادة • زوج مثالى ببشاشته وحرصه وصبره وزوجة حكيمة رصينة تنجب أطفالها فى يسر ، والحياة من حولهما مشـرقة واضحة الى أبعد الحدود • كان واجب عطية فى مثل هذه المناسبات هو رعاية الاولاد وتسليتهم فى الغرفة الاخرى وتهيـأة بعض الأكلات السريعة الانية وحمل المياه الغالية من المطبخ الى يدى القابلة وغسل الثياب والخرق الملوثة ، ولم تفكر أن تخرج بأعمالها الى أبعد من هذا الحد التى تصلح للفتيات غير المتزوجات ، كما انها لم تشهد أختها حين الوضع •

هتفت القابلة فى انشراح ـ انها طفلة ـ ورفعت بين يديها مخلوقة ذات جلد أرجوانى لزج لا يتجاوز حجمها قدم الانسان ، وانبعث مـع هتاف القابلة صراخ هذه المخلوقة المعترض المحتج على طريقة اخراجها من رحم أمها المريح الوادع ، انهـا وقوقة المولـود التى تذكـر المرء بمستشفيات الولادة •

تنهدت صفية وتراخت فى سريرها ملتمسة الراحة بعد الجهـد الشاق ، فحملت عطية الى القابلة وعاء يمور بالماء المغلى وشرعت تساعدها فى غسل ابنة اختها ، ممعنة النظر الى ذلك المخلوق الضئيل الاخرس المطل حديثا على الحياة • قد انكمشت اطرافها الاربعة وغاص أنفها بين وجنتين منتفختين ترتفعان فوق فـم منفرج صغير يصرخ فى ضرب من

الاحتجاج ، قالت عطية فى ذات نفسها ـ مخلوقة خرساء غامضة الملامح ليس فيها ما يسر تستطيع أن تنشر السلام فى بيتى ، الا ما أعجب الحياة ، أننا نتشاجر من أجل شيء مثلها .

كان داود يروح ويغدو محمولا بقدمين متسارعتين ، مستفسرا عن صحة زوجته ، حاملا اليها عصير البرتقال ، مبالغا فى رعاية ابنته وتدليلها التى تبدت للجميع ككنز ثمين عالى القيمة ، وانتظرت عطية فى قلق ومسكنة أن يذكر داود وعده فى الطريق فيبحث الامر مع اختها صفية ، وقد تذكر هذا الوعد حينما أعولت الطفلة من جديد وأفاقت صفية لتهتم بأمرها ،فأسرعت نحوها عطية وجعلتها بين ذراعيها فى رعاية امومية ، ملولوة لها بطرف لسانها قال داود لزوجته ـ ما الذى ترتأينه يا صفية اننى أفكر أن نهب طفلتنا لاختك عطية وأخي سليم ـ واستطرد يقول فى نبرة مشفقة تكاد تكون رثائية ـ لكم امضنى حالهما اليوم ان الحياة من غير أطفال جحيما لا يطاق ، حتى الجنان والعروش لا تساوى شيئاً ازاء بسمة طفل من الاطفال ، ينبغى ان نعمل شيئاً يا صفية لاخى واختك فنمنحهما زينةالحياة الدنيا كما يسمونها .

لم تعترض صفية ، انما النظرة الرثائية الطافحة بالتأسى والتصدق التى حدجت بها اختها المحرومة من نعمة الولد لم تكن تختلف فى شيء عن نظرة المتدثر بالمعطف السميك نحو الشحاذ المرتعش من برد كانون . هذه النظرة أسالت الدموع فى عيني عطية فانفجرت باكية واختلج جسدها الصغير الضامر ، فهدأها داود ـ كفى بكاء ستكون لكما وقد أسميتها اللحظة سعاد ـ فحملها الى حضنها متابعا كلامه ـ اعتنيا بها احسنا تربيتها هذا كل ما نريده .

وعند الظهر فى اليوم التالى أقبل سليم فبشره أخوه بابوته قائلا فى حنان ـ انها خير تسلية لكما ولسوف تجربان حنان الابوة والامومة

فلا ينشب بينكما شجار ولا يحاول احدكما النباح على الآخر وتخديش مشاعره ، فحمل ابنته بين ذراعيه ووضعها فى حضن سليم الذى بدا مشدوها متبلدا تجاه تنصيبه ابا لطفلة غير طفلته فى لحظات قصار .

تقضت خمس عشر يوما على ميلاد سعاد حين اذن لعطية أن تحملها الى البيت . وقد حملتها بين ذراعيها مقمطة بقماط أبيض سميك حيث لا يبدو منها غير رأسها المستدير المفروش بالزغب الاشقر الناعم ، واذ بلغت انباء التبنى مسامع النزيلات ، استقبلن عطية بالتهانى والتبريكات وأخذن منها طفلتها معجبات بجمالها ونظافتها . وبذا انزاحت الستارة عن فصل مشرق من حياة الخالة عطية ، فهى اليوم أم تكاد تكون حقيقية ، تنهض برعاية الطفلة رعاية امومية لا غبار عليها . تسقيها الحليب بزجاجة بيضاء ذات رأس لين من الكاوتشوك تحصره الطفلة فى نهم بين شفتيها الرقيقتين اللتين لا يشد من أزرهما أى أثر للاسنان .

واستتبع هذا التبنى موجة محمومة من مشتريات لوازم الطفلة ، فقد بذلت عطية ما فى طاقتها لجعل طفلتها أبرز أطفال المنزل اناقة ونظافة ، وكل هذا استلزم نفقات اضافية كبيرة تحملها الزوجان فى رضا ورحابة صدر . وكان سليم فى بادىء الامر ينظر الى هذا التبنى كضرب من حماقة النساء ، أشبه بوضع شعور مستعارة على رأس الصلعاوات ، الا انه شيء بعد شيء استجاب لداعى الابوة المكبوت ، ولعل كان ذلك بسبب من جمال الطفلة ومرحها واشراق وجهها . فمخلوق ضئيل عادم لكل نطق مفهوم احتفر ببسماته وغرغرته وذكاء عينيه سبيلا الى قلب الرجل المتخشب الناقم الموصود دون كل عاطفة رقيقة . انه اليوم يحتضنها ويرفعها بين يديه الى ما فوق رأسه مغمغما وملولوا وناخرا شتى الاصوات فتبتهج الطفلة وتهش ممررة أناملها الصغيرة البضة على الوجه

الكبير المزروع بشعرات اللحية الكثة الذى يهبها كل هذا الحنان .

ابتاعت لها عطية أحزمة وثيابا وأغطية وعددا من الاقمطة وعمرات الرأس وصارت تحملها معها فى نزهاتها على الجسر وزيارة معارفها واصدقائها ، وتناقص بهذا السبب عدد الساعات التى كانت تبذرها فى النقش والتطريز وضروب الاعمال اللا مجدية .

فى المساء يقبل سليم باشاً منشرح الصدر فيتجه فى الحال شطر سرير الطفلة متأملا فى وجهها حتى يجعلها تمد اليه ذراعيها تلتمسه بعينيها البريئتين ان يحملها على صدره ، فيفعل سليم ذلك بسرور بالغ ، فترتسم على قسماته الكالحة ظلال الأبوة الرؤوفة الحانية .

وثمة ساعات أخرى تحرن بها الطفلة كما تحرن الفرس ، قد تبكى وتتمرد ويعسر ارضاؤها وتبوء محاولات الابوين بالفشل ، كل ذلك يحدث بسبب من ضيق الطفلة أو ألمها أو جوعها أو علة أخرى لا يفسر ما تأها حتى الاطباء ، فتضمها عطية الى صدرها بحنان عظيم وتنتقل بها فى أرجاء الغرفة مهشهشة ملولوة بصوتها الاخن الناعم الجرس فيناقشها سليم فى قلق عن التدابير اللازمة لاجل اسكاتها . يسأل عن مشربها ومزاجها وأحوال معدتها فيتبارى واياها فى تفسير عوارض بكائها ، ويعمدان فى بعض الاحيان الى حبل مزدوج طويل يشدان طرفيه يقضبان النافذتين ويأتيان بكيس من الجوت يطويان حاشيته على الحبل ويفرشانه بحشية سعاد الصغيرة فيضجعانها على مهد مهزوز يتناوب الزوجان على دفعه وشده ، هذه العملية اللذيذة تفرح الزوجين وتشغلهما ساعة من الزمن .

بعض الخواطر تنثال على ذهن عطية ، وهى خواطر الام التى تملك بنتاً جميلة . ففى ساعات تداعى الوعى تسرح تأملاتها الى المستقبل . ففى غضون سنوات ثلاث ستشرع سعاد بالمشى على قدميها وتنمو أسنانها وينطلق لسانها ويكثف شعرها ، ويسترسل ،

فتضفره لها فى جديلة صغيرة صهباوية اللون بعصائب خضراء وزرقاء وتكف عن حملها واللقلقة لها وزقها بالحليب • ستكون سعاد أنيستها وجليستها ، واذ ما تبلغ السابعة تختلف الى مدارس البنات لتلقى مبادىء القراءة والعلوم وهذا فضل عظيم حرمت منه عطية أيام صباها فخرجت الى الدنيا أمية جاهلة ، ولسوف تمتد سنوات وسنوات تتكامل فيها معارف سعاد وجمالها وقدها ، فيأتى لعطية الخاطبون يلتمسون ويرجون ، وانها حينئذ ستسلك سلوك الام المعتزة بوحيدتها الجميلة ولسوف تشترط على الخاطبين أن تكون مع ابنتها ، فتضمن حياة رغيدة لا تخشى العوز ولا تحسب للفاقة حساب •

واذ ما هل شهرها السابع انتابها ضعف فجائى فأخذت تهزل وتحم وتتقيأ الحليب ، فتستلقى فى فراشها متيبسة الاطراف مفتوحة الفم مطفأة العينين ، فتهب عطية كل نصف ساعة تفحصها وتجس يديها ووجنتيها محاولة ايقاظها ، فتفتح الطفلة عينيها بجهد كبير ثم تغمضهما بأنين خافت غير راغبة فى مداعبات الخالة ولولوتها •

وبعد يومين طفقت تصرخ فى الليل والنهار حتى يهدها النحيب ويستنفد قواها ، فحملتها الى الطبيب فى العيادة الكبيرة الغاصة بالامهات والاطفال ، وانتظرت زهاء ساعة حتى جاء دورها ، فاسهبت للطبيب فى بسط شكاية الطفلة وعوارض مرضها فى جرس شاك متقطع بانفعالاتها ونحيبها وعقبت آخر الامر :

- حياتى حياتها وموتى موتها انقذها تكون قد انقذتنى - فلم يتوان الطبيب وهو شاب لطيف المحيا جم التواضع عن بذل علمه ومعارفه فى فحص الطفلة ووزنها وجسها باهتمام فطمأن عطية وكتب لها وصفة ابتاعتها من الصيدلى ،وهى سائل بنى اللون فى زجاجة معتمة تتناوله سعاد ثلاث مرات فى اليوم • وفى البيت حرص سليم وعطية

على ضبط مواعيد اسقاء الدواء بهمة بالغة ، غير أن الداء كان يعمل على سحق هـــذا الكائن الصغير البرىء المحبب غاية الحب الى الزوجين المحرومين من لذة الولد • انها تتبخر بين يديهما فى سرعة وتعجل ، كما يتبخر العطر المسفوح على الارض ، مخلفاً فى المهد جلداً ذابـلاً وعظما معروقاً • وفى الايام الاخيرة من عمر سعاد حملتها عطيـة كرة أخرى الى الطبيب ، وهى تنتحب وتولول ولا يرقا لها دمع ، فألقت بنفسها على قدميه متضرعة متوسلة أن يعمل شيئاً فى سبيل حياتهـا ، حياة الطفلة وحياتها هى بالذات ، فلم يجد نطس الطبيب ولا علاجاته نفعاً ، وفى يوميها الاخيرين انطمست عيناها وراء أجفان متورمة زرقاء واضطرب نبضها وتيبست شفتاها ، وفى موهن من الليل اســلمت الروح ، فارتفع نحيب الخالة عطيـة • نحيب متحشرج مكظوم انساب فى لوعة غامرة وضنك بالغ ، فاختلج صدرها وزاغت عيناها كمن أصابه مس ، فاستفاق سليم من نومه الثقيل مذعوراً مكفهر الوجـه شـاعث الشعر متطلعاً حواليـه فى ضيق وانزعاج ، واذ ما عـلم بجلية الخبر بهت لحظة ، وتقدم الى الميتة فألقى على وجهها المتيبس الشمعى المتشح بجلال الموت ، نظرة كئيبة بلهاء ومضى الى فراشـه مغمغماً « سيواجه أحدنا الآخر من جديد » •

وكأنما بكلماته هذه رفع مكبساً كان يضغط على حنجرة الخالة فانطلق نحيبها هذه المرة مرناً صافيا نافذاً فى أعماق القلب ، تتكدس فيه المرارة والالم وانكسار الخاطر • وفى الظلمة سعت أقدام محترسة مستطلعة وسرت همهمات وهمسات ثم انفرج باب الخالة واتلعت منه الاعناق • كن النزيلات اللواتى روعن مصاب عطية وبكاؤها المؤلم فانشأن يذرفن معها الدموع ، فيما تربع سليم فوق فراشه حاجباً وجهه بيده الواحدة لاطماً ركبته بالاخرى حتى انفلاق الفجر •



طبع شركة التجارة والطباعة (ذ٠م٠م٠)
الصالحية ــ بغداد
١٩٥٨